

الرؤية الحضارية للعمل عند المسلمين

الدكتور / إبراهيم بن محمد الحمد المزيني
قسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة :

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هديه وسار على نهجه إلى يوم الدين.. أما بعد:

فإن حضارتنا الإسلامية تعيش تكاملاً حضارياً في مختلف أوجه حياة الناس واحتياجاتهم، فلم يكن التركيز على جانب على حساب آخر، مما جعل هذه الحضارة تتميز عن غيرها من الحضارات بالتوازن في معطياتها والتكامل بين احتياجات أفرادها وأحوال مجتمعاتها على حد سواء.

وقد تبوأ العمل قيمة حضارية عالية، ونظرة متميزة في ديننا الإسلامي الحنيف، حيث إنَّ نظرة الإسلام إلى العمل والحث إليه من الأمور التي لا تزال لها أبعادها المهمة في التطور الحضاري السريع الذي شهدته المجتمعات الإسلامية في مختلف أوجه الحياة الإنسانية.

فقد رسم الإسلام منهجاً مثالياً للعمل يعتمد على مراعاة التوازن بين حقوق العمّال وأصحاب العمل على حد سواء، ويؤكد سبق الإسلام في الدعوة إلى مراعاة حقوق الإنسان وتكريمه، والرفع من شأنه عضواً فاعلاً في هذه الحياة في كل ما يحقق عمارة هذا الكون ورفيقه.

وهذا ما يميز ديننا الإسلامي في أنه لم يكن في يوم من الأيام مجرد شعائر تعبدية صورية، بعيدة عن واقع حياة الناس واحتياجاتهم، وإنما هو في واقع الأمر منهاج متكامل للحياة الإنسانية السعيدة.

ولقد كان نظام العمل من الأمور التي أولتها الحضارة الإسلامية رعاية واهتماماً كبيرين. وذلك بمتابعة تطور هذا النظام، والحرص على مراعاة احتياجات العامل وصاحب العمل بصورة متوازنة.

وكان من بواذر تنظيم العمل في الحضارة الإسلامية نظرة التكريم التي نظر بها الإسلام إلى العاملين، وكذا الدعوة الصريحة إلى العمل المهني واعتباره حقاً مكتسباً

لكل قادرٍ عليه، وسمةٌ من سمات المسلمين المتسبين للعيش حياةً كريمةً، فجاءت الدعوة صريحةً في القرآن الكريم من خلال مجموعة من الآيات التي أكدت مشروعية العمل، والتحفيز إليه، بل واعتباره عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله تعالى، وكذا الرفع من شأن العاملين، والحث على كسب الرزق الحلال، والسعي إلى الإنتاج والتنمية من خلال العمل المشروع. وفي المقابل النهي عن البطالة والاتكال على الآخرين.

كما جاءت هذه الدعوة أيضاً من خلال التوجيهات النبوية الكريمة لأصحابه محاولة منه - عليه الصلاة والسلام - لتغيير النظرة التي كانت سائدة عن العمل المهني في عصور سابقة للإسلام، وحثاً لهم على العمل والكسب المشروع، والرفع من شأن العاملين وتشجيعهم. وكذا إجماع علماء الأمة وفقهائها على أن القيام بالعمل فرض كفاية، وممارسة ذلك واقعياً لدى كثير منهم، وكانوا بالفعل قدوة لمن جاء بعدهم.

ووفقاً لهذه النظرة المتميزة للعمل والعاملين في الإسلام، وما تبع ذلك من تنظيم دقيق لنظام العمل، تحقق من خلاله توازن فريد في الحقوق والواجبات بين أصحاب العمل والعمّال على حد سواء، فقد تبوأ الصنّاع والمحترفون مركزاً مهماً هيّأهم لدور حضاري كان له انعكاس واضح في ازدهار كثيرٍ من المجتمعات الإسلامية، ورفيها. وكان هؤلاء العمّال يعيشون وفق تنظيم دقيق تنتظم من خلاله حقوقهم، وواجباتهم، وكذا مواقعهم وتصنيفاتهم في المجتمع الإسلامي، وعلاقاتهم بأصحاب العمل. وهذه التنظيمات جميعها تسير وفق إجراء دقيق يُتابع من الدولة الإسلامية عن طريق أهل الحسبة الذين كان لهم اتصال مباشر بأصحاب المهن والعاملين والمستفيدين على حد سواء.

ويمكن هنا إبراز الأهداف المتوخاة من هذا البحث وفق النقاط الآتية:

١- إظهار دعوة الإسلام إلى العمل والحث عليه، من خلال آيات القرآن الكريم، والتوجيهات النبوية الكريمة، وما أثر عن سلف الأمة وفقهائها في الحث على

العمل، والرفع من شأن العاملين، وكذا النهي عن البطالة والكسل، وإبراز الاهتمام الكبير بتنظيم العمل في الحضارة الإسلامية، بما يُحقق معرفة مجالات العمل المتعددة، واتساع هذه المجالات وفق ما هو مشروع مباح، مع التأكيد على مجموعة من الأعمال غير المشروعة مما أكد التشريع الإسلامي على تحريمها، وكذا ضمان حقوق العاملين وأصحاب العمل، والواجبات المنوطة بكل منهم بما قرره قواعد العمل في الإسلام.

٢- إبراز التنظيمات العمالية عند المسلمين، وربطها بالدولة متابعة وإشرافاً عن طريق نظام الحسبة، الذي يُعنى ضمن اختصاصاته بمراقبة أصحاب العمل والعمال، ومتابعة تحقيق التوازن بين الطرفين، والحرص على التوفيق بينهما، وكذا متابعة أحوال الحرف والصناعات من حيث جودتها وأسعارها، بمعونة عريف لكل حرف.

٣- العمل على تأصيل مجموعة من المصطلحات ذات العلاقة بالعمل والمهن وربطها بما هو مستخدم في أنظمتنا الحاضرة، ومحاولة ترجيح ما يتناسب إطلاقه من هذه المصطلحات وفق رؤية واقعية.

٤- إبراز الأثر الكبير الذي قام به الحرفيون والصناع في بناء المجتمعات الإسلامية، والارتقاء بالنشاط الاقتصادي في تلك المجتمعات، وكذا دراسة أحوالهم المعيشية والاجتماعية وتنظيماتهم المهنية، ودعم ذلك بالشواهد التاريخية.

٥- محاولة تنفيذ كثير من الشُّبه التي تثار حول احتقار بعض المهن والحرف عن طريق إبراز مشروعية هذه المهن والرفع من شأنها بممارسة بعض الأنبياء والصالحين لكثير منها، وكذا ما يُثار من تشكيك في مدى صلاحية تطبيق التنظيمات الإسلامية الخاصّة بالعمل على أرض الواقع المعاصر في ظلّ التطورات التقنية، والتعقيدات الاقتصادية الحديثة.

٦- ثمّ إنّ المسلمين اليوم بحاجة إلى معرفة حقيقة نظمهم الحضارية بشمولها، وصلاحياتها لكل زمان ومكان، ومتى ما علموا ذلك شعروا بالعزة والكرامة، ومن تلك النظم نظام العمل بما تناوله من عدالة اجتماعية لطرفي الإنتاج - العامل، وصاحب

العمل - على حد سواء. وهو مدعاة للافتخار والاعتزاز، والإنسان يقبل على عمله في مصنعه، أو متجره، أو أي جهة من جهات كسبه بأمان واطمئنان.

ومما تحسن الإشارة إليه هنا أنّ هذه الدراسة لن تعتمد إلى تتبع النشاط الحرفي والمهني في عصور الحضارة الإسلامية المتعاقبة. فهذا ما يحتاج إلى مجال أرحب من حجم هذا البحث، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فإنّ هذه الدراسة أعدت لاستشراف الرؤية الحضارية للعمل عند المسلمين، وهذا يعني التركيز على الفكر التنظيمي للعمل من خلال النظرة الحضارية للعمل في ظل الإسلام، ومدى إسهام تلك النظرة في إقبال الناس على العمل، وتعدد مجالاته، وكذا إبراز اهتمام المسلمين بالتنظيمات العمالية الملّية لاحتياجات المجتمعات الإسلامية، والهادفة إلى تحقيق التوازن المثالي في الحقوق والواجبات بين أطراف العمل. مما يؤكد سبق الحضارة الإسلامية لكثير من التنظيمات الحاضرة في هذا المجال، ومما يمكن معه تلمس نظامٍ مثاليٍّ للعمل والعمال في المجتمع المعاصر.

وإنني في ختام هذه المقدمة لأؤكد - بكل واقعية - أن الإسلام بنظرة المثالية للعمل، وبما ضمنه من حقوق وواجبات للعمال وأصحاب الأعمال على حد سواء، وبما تمّ تطبيقه من تنظيم عمّالي في ميدان الواقع تحققت معه مكاسب اجتماعية وحضارية مهمّة تؤكد تميز الإسلام وسبقه إلى كثير من التنظيمات الحياتية المعاصرة ومناسبتها لأيّ احتياج إنساني وتطور حياتي متجدد.

والله ولي التوفيق، ومنه نستمد العون والسداد، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

مفهوم العمل في الإسلام:

بداية يشار هنا إلى أنّ إيضاح المفهومات الأساسية لمصطلح من المصطلحات، والمدلولات المرادفة له أمر ضروري من أجل التوصل إلى مفهوم محدد تنتظم من خلاله التطبيقات والشواهد التاريخية للموضوع بشكل محدد وواضح.

من هذا المنطلق، فإنه من المناسب أن نقدم هنا تعريفاً لمفهوم العمل، وما يرتبط به من مصطلحات ذات علاقة مباشرة بالعامل أو صاحب العمل. وهي مصطلحات مترادفة ومتداخلة تؤدي معاني متقاربة، وترمز إلى العمل بمفهومه العام.

ففي دائرة الاهتمام اللغوي لمصطلح "العمل" في المعاجم اللغوية نجد أنه جاء عند ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" قوله: عمل يعمل عملاً، فهو عاملٌ. واعتمل الرجل، إذا عمل بنفسه، والعمالة: أجر ما عمل. والعمّلة: القوم يعملون بأيديهم ضرورياً من العمل.^(١)

أما ابن منظور، فقد أسهب في سرد مجموعة معانٍ يمكن من خلالها تلمس صيغة مناسبة لهذا المصطلح منها:

"العمل: المهنة والفعل، والجمع أعمال، عمل عملاً، وأعمله غيره، واستعمله، واعتمل الرجل: عمل بنفسه... واستعمل فلانٌ غيره: إذا سأله أن يعمل له... ورجل عمِلٌ: ذو عمل... والعمالة بالضم: رزق العامل الذي جعل له على ما قلّد من عمل".^(٢)

وفي المعجم الوسيط: "عمل عملاً: فعل فعلاً عن قصد، ومهن وصنع. واستعمله: جعله عاملاً، وسأله أن يعمل له. والعامل: من يعمل في مهنة أو صناعة.

(١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م). معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبدالسلام محمد هارون. بيروت: دار الجيل، (د.ت). ج ٤، ص ١٤٥.
(٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ / ١٣١١م). لسان العرب. القاهرة: دار المعارف، (د.ت). ج ٤، ص ٣٠٧-٣١٠.

والعمالّة: حرفة العامل. والعمالة: أجره العامل. والعمل: المهنة والفعل. وجمعها: أعمال^(١).

ومن التعريفات الاصطلاحية للعمل:

- تعريفٌ لفقهاء الشريعة يُعرف العمل بأنه: بيع منفعة ، ويضعون بذلك عقد العمل - كما تسميه التنظيمات الحديثة - ضمن عقود الإجارة ، واصطلاح على تسمية العامل : (أجيراً) ، وما يأخذه مقابل عمله . (أجرأ) ، وأدخل ذلك في باب أحكام المعاملات.^(٢)

- وهناك تعريف بمفهوم اقتصادي يقول: إنّ العمل هو المجهود الذي يبذله الإنسان للحصول على منفعة، سواء أكان ذلك الجهد يدوياً كعمل الفلاح والعامل، أم عقلياً كعمل المعلم والطبيب، كما يشمل عمل المنظم، وهو الذي يوجه العملية الإنتاجية، ويوائم بين عناصر الإنتاج المختلفة مما يحقق سير الإنتاج ومضاعفته.^(٣)

فالعمل بهذا التوجه هو العنصر المعنوي من عناصر الإنتاج، وليس ثروة مادية، تدخل في نطاق الملكية الخاصة أو العامة. وعائده يكون في شكل محدد وهو "الأجر". أو في شكل غير محدد وهو "الربح".^(٤)

- وهناك تعريف آخر يقول : إنّ العمل يعني كل جهد يبذله الإنسان بوحى من إرادته واختياره ، سواء أكان جهداً ذهنياً أم جسمانياً لتحقيق غرض نافع. أو هو

(١) المعجم الوسيط ، تأليف: بعض أعضاء مجمع اللغة العربية. بإشراف عبد السلام هارون. القاهرة: مطبعة مصر، ١٣٨١هـ (١٩٦١م). ج ٢، ص ٦٣٤.

(٢) محمد محمد الطويل . العمال في رعاية الإسلام . الجيزة ، ج.م.ع : مكتبة ومطبعة الغد ، ١٤١٩ هـ (١٩٩٨م) . - ص ٧٥.

(٣) محمد شوقي الفنجرى. الإسلام والمشكلة الاقتصادية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، (د.ت). ص ٧١.

(٤) سيد أبو الفتوح محمد بسيوني. الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية. المنصورة، ج.م.ع: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م). ص ٣٤٤.

كلّ عناء يتحمّله الإنسان في سبيل إشباع الحاجات عن طريق إنتاج السلع، والخدمات^(١).

- أما علماء القانون فينظرون إلى العمل على أنه جهد يبذله الإنسان بمقتضى اتفاق مع طرف آخر في مجال النشاط المهني المشروع، في مقابل معين، ولمصلحة هذا الطرف، وتحت أمره وإشرافه، أو من ينوب عنه، سواء أكان ذلك في القطاع الصناعي أم الزراعي أم التجاري، وسواء أكان هذا المقابل - أي : الأجر - نقداً أم عيناً.^(٢)

- ويمكن أن يرد التعريف الآتي للعمل ليشتمل على الجانبين الاقتصادي، والتنظيمي، وهو : " كل عمل أو منفعة يؤديها الإنسان بإرادته الحرّة مقابل أجر يستحقه في ضوء تشريعات الدولة التي يعمل فيها".^(٣)

أما أبرز المصطلحات ذات العلاقة المباشرة بالعامل أو صاحب العمل، والتي تؤدي إلى معانٍ متقاربة ترمز بمفاهيمها إلى العمل بمعناه العام، فتتمثل فيما يأتي:

الحرفة:

الحرفة في الأصل مأخوذة من تنمية المال ، يقال: "أحرف الرجل فهو مُحَرِفٌ": إذا غاماه وصلاح. ويقال: "جاء فلان بالإحراف": إذا جاء بالمال الكثير، "وفلان يحرف لعياله"، أي : يكسب بعمله من ههنا وههنا. والحرفة أيضاً الصناعة. والمُحترف: الصانع.^(٤)

ويقال أيضاً: " حَرَفٌ لأهله واحترف، أي : كسب وطلب واحتال". وقيل: الاحتراف هو الاكتساب أيّاً كان، والحرفة جهة الكسب ومصدره.^(٥)

(١) السيد حنفي عوض. العمل وقضايا الصناعة في الإسلام. الإسكندرية: المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ - (١٩٩٦م). ص ١٧.

(٢) المرجع السابق. ص ١٩.

(٣) المرجع نفسه. ص ٢٢.

(٤) الجوهري، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م). الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار. ط ٤. بيروت: دار العلم للملايين، (١٩٩٠م). ج ٤ ، ص ١٣٤٢.

(٥) ابن منظور. لسان العرب. ج ٢، ص ٨٣٩.

وقد اختصر بعضهم تعريف الحرفة فقال إنها: "الطعمة، والصناعة التي يُرتزق منها وهي جهة الكسب".^(١) وكل ما اشتغل به الإنسان يسمى : صنعة وحرفة ، لأنه ينحرف إليها.^(٢) .

ويخلص تعريف الحرفة إلى أنها: عملية يمارسها الإنسان سواء لمصلحته أو لدى آخر، ويحصل منها على عائد مادي معيّن، وهذه الحرفة لا تتطلب دراسة نظرية، أو تدريباً طويلاً ، وإنما تحتاج فقط إلى خبرة يكتسبها العامل بمجرد وقوفه على عمل المختصين بأي حرفة.^(٣)

الصناعة:

مصدرها الصُّنع ، وهي حرفة الصانع وعمله ، فيقال : امرأة صنّاع اليدين ، أي : حاذقة وماهرة بعمل اليدين ورجل صنع اليدين ، أي : صانع وحاذق.^(٤) وقيل: إن الصنع إجادة الفعل، ومنه قوله : "صنع إليه معروفاً"، وهو الفعل الصادر عن الإنسان لا الحيوان والجماد ، و (الصناعة) هي حرفة الصانع، وعمله يسمى: الصناعة.^(٥)

(١) الزبيدي، محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسيني الواسطي (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق إبراهيم التريزي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م) ج ٢٣. ص ١٣٣.

(٢) الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت ٨١٧هـ/ ١٤١٥م) القاموس المحيط. بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م). ج ٣، ص ١٣١.

(٣) السيد حنفي عوض. مرجع سابق. ص ٢٦، ٢٧.

(٤) ابن منظور. لسان العرب. ج ٤. ص ٢٥٠٤؛ الجوهري الصحاح. ج ٣، ص ١٢٤٥.

(٥) ابن منظور. لسان العرب. ج ٤. ص ٢٥٠٨؛ الزبيدي، تاج العروس. ج ٢١، ص ٣٦٣، ٣٦٤.

وقد وردت ألفاظ في القرآن الكريم تدل على معنى الصناعة منها قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ ثَمَرٌ مِّمَّا سَحَابُ اللَّهِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (١).

ويقال: إن الحرفة والصناعة تأتي بمعنى واحد، يقول ابن منظور: "المحترف الصانع. وفلان حريفي: أي: معاملي... والمُحَرِّف: الذي نما ماله وصلاح، والاسم: الحرفة... والحرفة: الصناعة، وحرفة الرجل: صنيعة أو صنعة، وحرف لأهله واحترف: كسب وطلب واحتال. وقيل: الاحتراف الاكتساب أيًا كان". (٢) ويؤكد الرازي أن الحرفة هي: "الصناعة، والمحترف هو الصانع". (٣)

فكأنه هنا جعل مصدر الكسب - حرفة أو صناعة - بمعنى واحد، فقد يُطلق على الصانع محترف، كما يطلق على المحترف للشيء بأن صنعه كذا وكذا فهما هنا بمعنى واحد.

كما يفهم من هذه التعريفات: أن الحرفة أو الصناعة هي مصادر الكسب التي يجيدها الشخص من تجارة أو زراعة أو عمل يدوي معين سواء أكان صناعة أم خدمات أخرى كالحماية أو السقاية، وقد تدخل فيها الأعمال العلمية كتعليم القراءة أو احتراف الطب، أو غير ذلك مما يختص الشخص بصنعه ويُدرُّ عليه المال. (٤)

(١) سورة النمل: آية (٨٨).

(٢) ابن منظور. لسان العرب. ج ٢، ص ٨٣٩.

(٣) الرازي، محمد بن أبي بكر (ت بعد ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م). مختار الصحاح. - بيروت: دار الكتاب العربي، (١٩٦٧م). - ص ١٣١.

(٤) عبدالعزيز بن إبراهيم العمرى. الحرف والصناعات في الحجاز في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. ط ٣. الرياض: دار إشبيلية، ١٤٢٠هـ (٢٠٠٠م). ص ٣٨.

المهنة:

وقد عرّف ابن منظور المهنة أنها: الحِذْقُ بالخدمة والعمل ونحوه. وقد مهن يمهّن مَهْنًا : إذا عمل في صنّعه. وأورد حديث: " ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم جمّعه سوى ثوبي مهنته"^(١) أي : بذلته وخدمته. وقول الأصمعي: المَهْنَةُ بفتح الميم : هي الخدمة. ولا يقال مهنة بالكسر. وفي الحديث: "كان الناس مُهَنّان أنفسهم"، وفي حديث آخر : "كان الناس مَهْنَةً أنفسهم". وكل عمل في الضيعة: مهنة، وامتهنه: استعمله للمهنة.^(٢)

وفي المعجم الوسيط : جاءت مهنة بالكسر، وتعني: العمل. وامتهن الرجل ومهن: عمل في صنّعه. وامتهن: اتخذ مهنة، والمهنة: العمل يحتاج إلى خبرة ومهارة وحذق في ممارسته، وهو في مهنة أهله: أي : في خدمتهم.^(٣) كما ورد في حديث المصطفى أنه كان ﷺ يقوم في بيته بمهنة أهله، أي : بخدّمتهم.^(٤)

ويمكن أن تُعرّف المهنة اقتصادياً بأنها: المهارة التي تُكتسب عن طريق دراسة طويلة، ومتخصصة ومنظمة، وتجارب تدريبية أو خبرات تطبيقية، وتخضع للتنظيم كمهنة الطبيب، والمهندس، والمدرس، والفني.

والواقع أنه تمّ استخدام مصطلح (المهنة) في الغالب للتعبير عن مصدر الرزق. فيقال: فلان مهنته كذا، أو أنه امتهن هذه الحرفة أو تلك.

-
- (١) هذا الحديث رواه أبو داود في سننه بهذا اللفظ ، أبو داود، الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م. سنن أبي داود، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس و عابد السيد. بيروت: دار ابن حزم، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م. ج- ص ٢٨٢.
- (٢) ابن منظور. لسان العرب. ج ٦، ص ٤٢٩.
- (٣) المعجم الوسيط. ج ٢، ص ٨٩٧.
- (٤) الحيشي، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عمر الوصافي الحبيشي (ت ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م) ، البركة في فضل السعي والحركة. بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨م). ص ٦، ٧.

من هذا المنطلق، فإنه من الواضح أن المصطلحات السابقة : العمل، الحرفة، الصناعة، المهنة. مصطلحات متداخلة، وذات مفهومات ودلالات متقاربة، بل مترادفة. فمصطلح (العمل) كما ورد في معاجم اللغة: يأتي بمعنى: صنع الشيء، وحرفة الصانع، وعمله: الصناعة، وكذا (المهنة) : وتعني الحذق بالعمل، والخدمة. وجميعها في نهاية الأمر تعني: الارتزاق بفعل، أو طلب الكسب بسبب.

ومن التسميات الحديثة لمن يمارس العمل مصطلح " الأيدي العاملة " ، و"الفئة العاملة " ، و " القوى العاملة " ، وهي مصطلحات مترادفة شاع إطلاقها على العامل في العصر الحديث، إلا أن منظمة العمل العربية تكاد تستقر على استخدام مصطلح "العمالة" لهذه الفئة، وقد عرّفته المنظمة في تنظيماتها بأنه : " ينصرف إلى الأشخاص الذين يؤجرون عملهم لأصحاب العمل، ويكونون أثناء العمل تحت إشراف وتوجيه مستخدميهم".^(١)

وفي مجال التعريف الأوربي لمصطلح العمل (Labor): يشار إلى أن معجم المصطلحات الدولي (ويستر) يتضمن عشرين تعريفاً للعمل، وأكثر من ثلاثين معنى للكلمة، كفعل، وتشترك هذه التعريفات في أغلبها حول مصادر القوى الآلية والحيوانية والنباتية، وقوى الإنسان كوسيلة لغاية العمل، وهذه الغاية هي توفير صيانة المعيشة لحياته فقط. وفي الوقت نفسه أخذ هذا القاموس مصطلح العمل على نطاق واسع، فأطلقه بمعنى الصناعة على كل مجالات الفن والمهن والأعمال التي تعتمد على رأس المال والعمل بكثرة. كما تأخذ النشرات والجداول الإحصائية في الولايات المتحدة بهذا المفهوم، فتطبق الكلمة على كافة المجالات التي تعتمد على التشغيل الكامل للأفراد بما في ذلك الأعمال الحكومية والأهلية والعمل في المنازل.^(٢)

(١) صادق مهدي السعيد. مفهوم العمل وأخلاقه في الإسلام. القاهرة: مكتب العمل العربي، (١٩٨٣م). ص ٢٤ .

(٢) السيد حنفي عوض. مرجع سابق. ص ١٤.

ومن هذا يمكن أن يقال : إن مصطلح العمل له معنى لأ يشوبه أي قدر من الغموض من حيث دلالاته على أفعال النشاط الإنساني المؤدي إلى الكسب سواء في المكتب أو في السوق أو في المصنع ، أو في أي مكان يؤدي إلى التفاعل الإيجابي ضمن النشاط الاقتصادي.^(١)

ويمكن من خلال التعريفات السابقة للعمل، والمصطلحات ذات المدلولات المقاربة لمعنى العمل في اللغة، أن يشار إلى أن العمل بشموله يعني : "الطريق المباح للكسب الحلال الضروري لاستقامة الحياة". وهو بذلك لا يقتصر بالضرورة على الاحتراف، والاستصناع، والامتهان، بل يتسع المفهوم ليشمل "كل جهد يقوم به الإنسان لتحقيق منفعة سواء أكانت شخصية، أم للغير مقابل أجر يحصل عليه العامل. وهذا الجهد يمكن أن يكون ذهنياً، أو يدوياً، أو فنياً، سواء أكان لشخص، أم لجهة عامة أو خاصة".

ويمكن أيضاً استعمال كلمة "صناعة" ليتم إطلاقها على كل نشاط يترتب عليه إنتاج محسوس له مردود اقتصادي، أو يخدم منفعة معينة.

أما كلمة "حرفة" فيمكن إطلاقها على كل عمل يقوم به الإنسان، ويتطلب مهارة معينة مكتسبة، وربما يتخصص به المحترف دون غيره.

أما كلمة "مهنة" فيمكن استخدامها في الغالب للتعبير عن مصدر رزق الشخص، فيقال : فلان مهنته كذا، أو أنه امتهن هذه الحرفة أو تلك.

وهذه المصطلحات جميعها تتصل اتصالاً مباشراً بالعامل، ومصدر رزقه مقابل قيامه بمهمة أو كلت إليه، وإن اختلفت تلك المفهومات في استخداماتها، فإنها تؤدي إلى مدلولات متقاربة ترمز إلى مصطلح العمل بمفهومه العام.

(١) المرجع نفسه. ص ١٤.

نظرة العرب قبل الإسلام للعمل:

ونحن نستطلع رؤية المسلمين للعمل وواقعه في حياتهم، لابد أن نعود إلى الماضي قليلاً لنتعرف على نظرة العرب قبل الإسلام للعمل، وموقفهم من كثير من الحرف والصناعات.

ويمكن أن تتضح تلك النظرة بوضوح من خلال الوقوف على مجموعة من الأعراف والعادات التي كانت سائدة في ذلك العصر، والتي كان لها الأثر الكبير في تشكيل الحياة الاجتماعية والاقتصادية. ومن جملة هذه الأعراف احتقار العرب لبعض الحرف المهنية وابتعادهم عنها، واحتقار من يمتنها، وقبولهم لحرف أخرى. فقد كانوا لا يأنفون من الرعي أو التجارة، حيث اشتهرت هاتان الحرفتان وامتتهنهما كثير منهم. وهذا أمر طبيعي بحكم البيئة، والموقع الذي يعيشون فيه والظروف الحياتية المحيطة بهم. أما الزراعة فقد كانت محترمة إلى حد ما عند الحضر، وأما البادية فقد كانوا يحتقرون الزراعة ويأنفون منها.^(١)

أما الصناعة فقد عدّها قسم من العرب قبل الإسلام من الأمور المستهجنة، فلا يليق بالعربي الحرّ الشريف أن يكون صانعاً لأن الصنعة - بزعمهم - من حرف العبيد، والخدم، والأعاجم، والمستضعفين في الأرض، وقد يعود سبب عزوفهم عن بعض الأعمال إلى أن العربي كان يرى فيها تقييداً لحريته وحداً من حركته، وكانوا إذا أرادوا تحقير إنسان وسبّه عيروه بمهنة أو صنعة ما.^(٢)

ومع أنهم على اختلاف في النظرة إلى الصناعة، فهم على اختلاف في النظرة إليها حسب مهنتها المختلفة، فمنها ما هو مقبول عندهم، ويمتنهه كثير منهم، كالغزل

(١) الغمري، مرجع سابق. ص ٤٢.

(٢) واضح الصمد. الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ (١٩٨١م). ص ١٥.

والنسيج الذي ينتشر عند كثير من أهل الحاضرة والبادية دون أدنى احتقار لمن يعمل بهما.

وعلى العكس من ذلك تماماً الحدادة، فإنهم كانوا يحتقرون من يمتنها ويسمونهم بالقيّين، والتي تعني : " العبد الرقيق". وهي كلمة ترتبط دائماً بالحدادة مما يدل على احتقارهم لهذه الحرفة، حتى إنهم أنزلوا ممتنيتها منزلة العبيد الأرقاء. وكان أصحابها يشكلون طبقة وضیعة في المجتمع الجاهلي في الحجاز، فلا يزوجهم، ولا يتزوجون منهم، بل يأنفون من مخالطتهم والتحدث إليهم.

وهذه النظرة من المجتمع الجاهلي لمجموعة من الصناعات جعلتهم يبتعدون عن ميدان العمل، مما جعل هذه الحرف حكرًا على الموالي والوافدين من خارج الحجاز، مما أكسب أصحابها الثراء الواسع والأموال الوفرة.^(١)

وبالجملة فإن نظرة العرب قبل الإسلام للعمل لم تخرج - في غالبها - عن إطار نظرة الحضارات السابقة : (اليونانية ، الرومانية ، والعبرانية) التي تركت أثرها الواضح في تدني مكانة العمل اليدوي في مجتمعاتهم. فكان العمل يعبر عن المهانة والاحتقار، وكان من يزاول بعضاً من الأعمال الحرفية يُنظر إليه نظر احتقار وازدراء، ويوصم بين الناس بالعار، حتى وإن وكل عمله لغيره، وعاش هو عاطلاً فارغاً عالة على غيره.^(٢)

نظرة الإسلام إلى العمل:

لما كان العمل في الإسلام هو العنصر الأساس في الاكتساب، بل هو أبرّ العناصر وأطيبها. وهو الدعامة الأساسية لحياة الناس، فقد أحاطه الإسلام بنظرة تكريم وإجلال،

(١) الغُمري، المرجع نفسه. ص ٤٣.

(٢) السيد حنفي عوض. مرجع سابق. ص ٤٢-٤٧.

وعدّ ممارسته حقاً طبيعياً لكل قادر عليه وسمة من سمات المسلمين العاملين للأخذ بأسباب الحياة السعيدة عن طريق الكسب الحلال.

وستعتمد الدراسة - بمشيئة الله - إلى تتبع ملامح من الأحكام، والشواهد التي تؤكد على مشروعية العمل، ودعوة الإسلام إليه، بل واعتباره عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله تعالى، وكذا دعوة العامل إلى إتقان عمله، والإخلاص فيه، ومراقبة الله عزّ وجلّ فيما يوكل إليه. وفي المقابل حذر من البطالة والكسل واستجداء الناس، جاء ذلك من خلال آيات القرآن الكريم التي نزلت صريحة في هذا الشأن، ومن خلال التوجيهات النبوية الكريمة، بأقواله ﷺ وأفعاله، واقتفاء أصحابه الكرام هذا الأثر، مما عاد على المجتمع الإسلامي بالنفع العظيم، ويمكن طرح هذه النظرة وفق المحورين الآتيين:

أولاً: الدعوة إلى العمل والحث عليه :

كانت دعوة الإسلام إلى العمل دعوة صريحة وقوية من خلال مجموعة من آيات القرآن الكريم، والأحاديث والتوجيهات النبوية الشريفة، وأقوال مجموعة من علماء الأمة وفقهائها ، مما يمكن معه تسجيل نظرة ديننا الحنيف إلى العمل المهني وموقفه من الاكتساب الحر في المشروع.

١- دعوة القرآن الكريم إلى العمل:

وقد كانت دعوة القرآن الكريم إلى العمل والحث عليه صريحة من خلال مجموعة من الآيات التي تؤكد مشروعية العمل، وحاجة الإنسان إليه دون تفضيل لعمل على آخر، وإنما الأصل في ذلك العمل المشروع الذي يحقق الكسب الحلال. فالحث على السعي والانتشار في الأرض، وابتغاء الرزق الحلال فيها، أمر أكدته مجموعة من آيات القرآن الكريم الواضحة في هذا المعنى منها:

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ ^(١).

(١) سورة الملك: آية (١٥).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١)، وهو توجيه بين من المولى تعالى بالسعي في كل سبيل طلبًا للرزق، وأن ذلك مدعاة للفلاح بإذن الله.

ويقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مَبْصُرَةً لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾^(٣). ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾^(٤).

ويقول جلّ وعلا: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَنْزَارًا مِنْ بَاتِ شَتًى كَلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَأُولِي الْأُلْبَابِ﴾^(٥).

ليس هذا فحسب، بل إن الإسلام قد ارتفع بالعمل والسعي في طلب الرزق إلى مصاف العبادات. حيث قرنه تعالى بالجهاد في سبيل الله، وذلك بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَأَخْرُونَ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٦).

(١) سورة الجمعة: آية (٩-١٠).

(٢) سورة الأعراف: آية (١٠).

(٣) سورة الإسراء: آية (١٢).

(٤) سورة النبأ: آية (١١).

(٥) سورة طه: آية (٥٣-٥٤).

(٦) سورة المزمل: آية (٢٠).

وأشاد القرآن الكريم بالعمل اليدوي ، وعدّه نعمة لا بد من الشكر عليها. من ذلك قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾^(١). كما نوه القرآن الكريم بشأن كثير من الصناعات الضرورية للحياة البشرية. من ذلك قوله تعالى عن صناعة الحديد: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾^(٢). وقوله عن نبينا داود عليه السلام : ﴿... وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ . أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّمَ فِي السَّرْدِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾^(٣)، وفي الإشارة إلى صناعة الدروع وفوائدها : قوله تعالى عن نبينا داود عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾^(٤). وفي صناعة الجلود يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾^(٥)، وفي صناعة الأكسية يقول تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾^(٦). وأشار القرآن إلى اتخاذ البيوت مساكن بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾^(٧). وفي بناء القصور والبيوت يقول تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾^(٨). وقال تعالى آمراً نوحاً عليه السلام بصناعة الفلك: ﴿وَاصْنَعِ الْفَلَكَ بُعَيْنَا وَوَحِينَا﴾^(٩).

(١) سورة يس: آية (٣٥).

(٢) سورة الحديد: آية (٢٥).

(٣) سورة سبأ: آية (١٠-١١).

(٤) سورة الأنبياء: آية (٨٠).

(٥) سورة النحل: آية (٨٠).

(٦) سورة النحل: آية (٨٠).

(٧) سورة النحل: آية (٨٠).

(٨) سورة الأعراف: آية (٧٤).

وهذه الآيات بمجموعها تعدُّ دعوة صريحة إلى العمل والحث عليه، وتؤكد مشروعية اتخاذ الأسباب ، والاكتساب الحلال عن طريق العمل على اختلاف أنواعه، وربط ذلك بالعبادة في مواضع عديدة.

٢- الدعوة إلى العمل في السنة النبوية:

أما في السنة النبوية المطهرة، فقد عمل الرسول صلى الله عليه وسلم على تغيير النظرة الخاطئة للعمل لدى العرب قبل الإسلام، سواء بالتوجيه المباشر منه صلى الله عليه وسلم ، أو بتطبيق أمورٍ يخالف بها مفهوماً شائعاً عند الناس، حتى يرى أصحابه منه ذلك، ومن ثم يقتدون به، وينقلون ذلك عنه إلى الناس.

وقد خصصت معظم كتب الحديث النبوي أبواباً عن الكسب والعمل باليد، فقد أفرد البخاري في كتابه الصحيح باباً أسماه : " باب كسب الرجل وعمله بيده " ، كما وضع ابن ماجه في سنته باباً في الحث على المكاسب، وباباً في الصناعات. ووضع الدارمي في سنته باباً أسماه : " باب في الكسب وعمل الرجل بيده "، وكل هذه الأبواب التي وردت وغيرها وردت فيها العديد من الأحاديث التي تحث المسلمين على العمل واكتساب المال عن طريق بعض الحرف اقتداءً بالأنبياء عليهم السلام ومن على شاكلتهم من الصالحين، مما كان له تأثير كبير على الصحابة - رضوان الله عليهم - فشارك عديد منهم بالعمل رغبة في كسب الرزق.^(٢)

(١) سورة هود: آية (٣٧).

(٢) العمري، المرجع نفسه، ص ٤٣-٤٥.

فقد روت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا عمّال أنفسهم، وأنه كان يكون لهم أرواح، فقليل لهم : لو اغتسلتم.^(١)

كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه، فهو صدقة" ^(٢) .
وروي عنه صلى الله عليه وسلم قوله : "من بات كالأمان من عمل يده بات مغفوراً له".^(٣)

كما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحث المسلمين على الكسب والعمل، وعدم الركون بحجة الانقطاع للعبادة، أو احتقار مهنة معينة، أو الاستهانة بها، وحذر الإسلام من البطالة والاتكال على الآخرين، كما وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يطلب الرجل الرزق في كل مراحل العمر ، حتى بين يدي الساعة، إذ روى أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل" ، رواه أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك.^(٤)

(١) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م). صحيح البخاري، ضبط وتخريج مصطفى ديب البغا. دمشق: دار القلم، ودار الإمام البخاري، ١٤٠١هـ - (١٩٨١م). ج ٢، كتاب البيوع، ص ٧٣٠. وقد علّق الشارح على قولها أرواح أنها: جمع ربح بسبب تعرفهم.

(٢) ابن ماجه، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م). سنن ابن ماجه. بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي المعروف بالسندي (ت ١١٣٨هـ). تحقيق خليل مأمون شيخا. بيروت: دار المعرفة. ١٤١٦هـ - (١٩٩٦م). ج ٣، ص ٥.

(٣) ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري. تصحيح وتحقيق الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز. مراجعة وإخراج محمد فؤاد عبد الباقي ومحبد الدين الخطيب. دمشق: مكتبة دار الفحاء، (د. ت). ج ٤، ص ٣٠٦.

(٤) ابن حنبل، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م) المسند. بيروت: المكتب الإسلامي (١٣٩٨هـ). ج ٣، ص ١٩١.

وفي مواضع كثيرة بيّن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم أنّ العمل من أشرف وسائل الارتزاق والكسب. وفي هذا الصدد يقول صلى الله عليه وسلم: "إنّ خير الكسب كسب يدي عامل إذا نصح".^(١)

ورواية أخرى عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سُئل عن أطيّب الكسب فقال: "عمل الرجل بيده وكلُّ بيع مبرور".^(٢)

وكان النبي ﷺ يتحدث دائماً إلى أصحابه حديثاً يُحبب فيه إليهم العمل ويحثهم عليه، فكان يُذكر أصحابه بأنه كان يعمل بالرعي، وأنّ الأنبياء - عليهم السلام - وهم قدوة الناس وأشرافهم، كانوا يحترفون لأنفسهم للكسب والتعفف عن أموال الناس، حيث كان لكل واحد من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حرفة يعيش بها، فكان آدم حرّاً وحائكاً، وكان إدريس خياطاً وخطاطاً، وكان نوح وزكريا نجارين.^(٣) وكان أيوب زراعاً، وكان داود زراداً، وكان سليمان خواصاً، وكان موسى وشعيب، ونبينا محمد - عليهم الصلاة والسلام أجمعين - رعاة.^(٤) فقد روى من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم. قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا كنت أرهاها لأهل مكة بالقراريط".^(٥)

-
- (١) رواه أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة، مسند الإمام أحمد. ج ٢، ص ٣٥٧، ٣٥٨.
- (٢) الحلال البغدادي، أبو بكر أحمد بن محمد (ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م). الحث على التجارة والصناعة والعمل والإنكار على من يدعي التوكل في ترك العمل ولا حجة عليهم في ذلك، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤١٥هـ (١٩٩٥م) ص ٤٥.
- (٣) روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كان زكريا نجاراً" (ابن ماجه. السنن. ج ٣، ص ١٢).
- (٤) الحبيشي. مصدر سابق. ص ٦.
- (٥) ابن ماجه، السنن، ج ٣، ص ١٢، والقراريط جمع قيراط، وهو الجزء من الدينار. (ابن حجر. فتح الباري. - ج ٤، ص ١٤١).

وقد أكد نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم شرف العمل مهما كان حجمه ونوعه مادام أنه يكفّ صاحبه عن سؤال الناس. فقد رُوي عن المقدم - رضي الله عنه - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما أكل أحد طعاماً قط، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ".^(١)

ويؤكد ابن حجر أن "الحكمة في تخصيص داود عليه السلام بالذكر أن اقتصاره في أكله على ما يعمل به يده لم يكن من الحاجة، لأنه كان خليفة في الأرض، كما قال تعالى.^(٢)، وإنما ابتغى الأكل من طريق الأفضل، ولهذا أورد النبي صلى الله عليه وسلم قصته في مقام الاحتجاج بها على ما قدمه من أن خير الكسب عمل اليد".^(٣)

وهكذا نجد أن نبينا ﷺ كان دائماً يضرب الأمثال للصحابة بالأنبياء عليهم السلام، وأنهم كانوا يحترفون لأنفسهم ويطلبون العيش عن طريق امتهان بعض الحرف أو الصناعات اليدوية دون أن يأنفوا من ذلك، وكان لدى الصحابة استجابة لهذه التوجيهات الكريمة، كما كان لها أثرٌ بالغٌ في نفوسهم.^(٤)

ثم كان صلى الله عليه وسلم دائماً ما يعمد إلى تطبيق أمور يخالف بها مفهوماً كان سائداً بين الناس ليقدم للناس الفهم الصحيح للعمل، من ذلك أن الناس في الجاهلية كانوا لا يستجيبون لصانع إذا دعاهم إلى طعام، ولكنه صلى الله عليه وسلم عمد إلى مخالفة ذلك حينما دعاه خياط بالمدينة إلى طعام في منزله فاستجاب له صلى الله عليه وسلم واصطحب معه أنس بن مالك رضي الله عنه.^(٥)

(١) البخاري، الصحيح، ج ٢، ص ٧٣٠.

(٢) وذلك في قوله تعالى في سورة (ص) آية (٢٦): ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْعَدْلِ﴾.

(٣) ابن حجر. فتح الباري. ج ٤، ص ٣٠٦.

(٤) العمري. مرجع سابق. ص ٤٦.

(٥) البخاري، صحيحه. ج ٣، ص ٧٣٧.

ومن هذا المنطلق دفع الرسول ﷺ بابنه إبراهيم إلى زوجة "حدّاد" يقال له :
"أبو سيف" من أجل رضاعته، فكان ﷺ يأتي إلى منزل أبي سيف الحدّاد وهو ينفخ من
كبيره وقد امتلأ البيت بالدخان.^(١)

والرسول صلى الله عليه وسلم بهذا العمل يريد أن يغيّر مفاهيم الناس
الخاطئة عن الحرف، وأن يرفع من نظرة الناس إلى العاملين، حيث أسند إلى زوجة
أحدهم رضاعة ابنه على حين كان الناس يتخيرون لأولادهم، الممرضات
من القبائل المعروفة في البوادي.^(٢)

كما أنه صلى الله عليه وسلم قد عمل في بداية حياته بالرعي، كما أشير إليه في
حديث سابق، وعمل أيضاً بالتجارة في مال خديجة - رضي الله عنها - كما كان
صلى الله عليه وسلم يعمل بيده الشريفة مع أصحابه الكرام ترغيباً لهم في العمل. حيث
اشتهر أنه صلى الله عليه وسلم قد عمل مع صحابته الكرام في بناء مسجده بالمدينة
كواحد من المسلمين حيث قال قائلهم:

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل^(٣)

كما عمل صلى الله عليه وسلم مع المسلمين في حفر الخندق بالمدينة ترغيباً
للمسلمين في الأجر، فإذا عجز المسلمون عن بعض الصخور قام صلى الله عليه وسلم
بتكسيها بيده الكريمة.^(٤)

(١) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت: مكتبة المثنى، (١٣٢٨هـ) ج ٤، ص ٩٨.

(٢) العُمري، مرجع سابق. ص ٤

(٣) ابن هشام، عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م). السيرة النبوية. تحقيق مصطفى السقا
وآخرين. - القاهرة: دار الكنوز الأدبية (د.ت). ج ١، ص ٤٩٦.

(٤) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م) تاريخ الأمم والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم. - القاهرة: دار المعارف، (١٩٦٠م). ج ٢. ص ٥٦٨.

كما ورد عن النبي ﷺ أنه كان يقوم في بيته بمهنة أهله، يفلي ثوبه، ويخلب شاته، ويرقع الثوب، ويخصف النعل، ويخدم نفسه، ويقمّ بيته، ويعقل بعيره، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ومع أهله، وكان يقول: " أكلك مع أهلك صدقة "، ويطحن معهم، ويعجن، ويقطع اللحم، ويحمل بضاعته من السوق، وينحر ذبائحه، إلى غير ذلك من الأعمال التي كان يقوم بها صلى الله عليه وسلم تواضعاً منه، وحنناً لأصحابه وأمته على العمل، وبيئاً لفضله. ^(١)

والأحاديث والتوجيهات الواردة عن نبينا ﷺ التي تحث على العمل وتمجده وترفع من شأن العاملين كثيرة جداً، وهذه التوجيهات النبوية الكريمة كلها توجيه للأمة نحو العمل والكسب الحلال، والاحتراف، والقيام بما يحتاج إليه الناس من صناعات، كما أنها تعتمد إلى تغيير النظرة الخاطئة التي كانت المجتمعات الجاهلية قبل الإسلام تنظر بها نحو العاملين في كثير من الحرف والصناعات. ^(٢)

وكان لهذه التوجيهات النبوية الكريمة أثرها الفاعل في الجيل الأول من صحابته الكرام، فتوجه كثير منهم إلى عمل يعمل به، وكان - صلوات الله وسلامه عليه - دائم التشجيع لهم على العمل، فكان أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله - رضوان الله عنهم أجمعين - يعملون في البز، وكان الزبير بن العوام، وعمرو بن العاص خرازين، وعمل خباب بن الارت حدّاداً، وقام سعد بن أبي وقاص بصنع النبال، وكان سلمان الفارسي حلاقاً، كما عمل عبدالله ابن مسعود برعي الغنم، وغيرهم كثير من الصحابة، والتابعين. ^(٣)

ومن الشواهد في ذلك: ما يروي عن أبي بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه حينما بُويع - رضي الله عنه - بالخلافة أصبح غادياً إلى السوق،

(١) الحبيشي . مصدر السابق. ص ٦-٧.

(٢) العمري، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٣) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي البغدادي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) تليس إبليس، تحقيق السيد الحميلي. بيروت: دار الكتاب العربي. ط ٧. ١٤١٤هـ (١٩٩٤م). ص ٣٤٥.

وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقبه عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، رضي الله عنهما - فسألاه أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق ، قالا : تصنع ماذا؟! وقد وليت أمر المسلمين! قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قالا: انطلق حتى نفرض لك شيئاً، فانطلق معهما، ففرضا له كل يوم شطر شاة ، وما كسوه في الرأس والبطن.^(١) وهي صورة مثالية للقدوة في إدارة الحكم، والحرص على طلب الرزق واكتساب الحلال.

٣- نظرة فقهاء الإسلام للعمل:

أما نظرة فقهاء الأمة الإسلامية للعمل فهي نظرة مثالية تدعو إلى اكتساب الرزق الحلال عن طريق العمل، وتحترم العاملين، وترفع من شأنهم ، من ذلك أن سعيد ابن المسيب - رحمه الله - (ت ٩٤هـ/ ٧١٣م) دعا إلى عدم ترك العمل بحجة الانصراف إلى العبادة.^(٢)

ورؤي عن الحسن البصري - رحمه الله - (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م) أنه قال: "مطعمان طيبان : حمل الرجل على ظهره ، وعمله بيده".^(٣)

أما الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١٢م) فقد شدّد في كتابه (إحياء علوم الدين) على أهمية العمل، بل عدّه من الواجبات على كل شخص، لا يعفى منه إلا أربعة ذكر منهم من يشتغل بمصالح المسلمين كالسلاطين والقضاة.^(٤)

(١) التلمساني، أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالخزاعي التلمساني (ت ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م). تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية. تحقيق أحمد محمد أبو سلامة. - القاهرة. لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٤٠١هـ (١٩٨١م). ص ٨٠٤، ٨٠٣.

(٢) ابن الجوزي. تلبس إبليس. ص ٣٤٦.

(٣) الخلال البغدادي. مصدر سابق. ص ٤٤.

(٤) الغزالي، الإمام أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (٥٠٥هـ/ ١١١٢م) إحياء علوم الدين. إستانبول: دار الدعوة، ١٤٠٦هـ (١٩٨٥م) ج ٢ ، ص ٦٣ - ٦٥.

وأكد ابن خلدون أن الأساس الذي يقيم بموجبه الشخص في المجتمع هو قدرته على الكسب، وأن الكسب لا يحصل إلا بالسعي، والعمل، وأضاف أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق، والسعي في تحصيله.^(١)

ويروي ابن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) عن أبي معاوية - وهو رجل من ولد كعب بن مالك - أنه قال: "لقد رأيتني أنضح - استقي من البئر - أول النهار، وأضرب آخر النهار على بطني بالمعول في المعدن" فسئل، هل لقيت مؤونة؟ قال: "أجل إنا طلبنا الدراهم من أيدي الرجال ومن الحجارة، فوجدناها من الحجارة أسهل علينا".^(٢)

وقيل في الأثر عن بعض أهل العلم: "درهم من تجارة أحب إليّ من عشرة من عطاء".^(٣)

ومما تشير إليه الشواهد التاريخية حول حرص الناس على تعليم أبنائهم طرفاً من الصناعات قبل فراقهم لهم، ما ورد في إحدى أوراق البردي أن ابنة أرسلت لأُمها بالفسطاط تسألها عن أخيها الأصغر، وتقول في خطابها: كيف تدعين الولد يغادر العاصمة قبل أن يتعلّم صنعة. وضمن وثيقة طلاق ترجع إلى سنة ٥٠٤هـ (١١١٠م) يتعهد الزوج للقضاء بإطعام ابنه وكسائه، وكذا يتعهد بتعليمه صنعة يتكسب منها.^(٤) ويكاد يُجمع العلماء المسلمون على أن القيام بالصناعات فرض كفاية على المسلمين، فشيخ الإسلام أحمد بن تيمية جعل العمل واجباً دينياً ودينوياً بالإضافة إلى

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، المقدمة، تحقيق علي عبدالواحد وافي. القاهرة، دار الشعب (د.ت). ص ٣٤٥، ٣٤٤.

(٢) ابن حبان، الإمام أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء. تحقيق، جمال ابن محمد بن محمود. الشارقة: دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ (١٩٩٥م). ص ١٨٠.

(٣) الخلال البغدادي. مصدر سابق. ص ٤٥.

(٤) السيد طه السيد أبوسديرة. الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي: ٢٠-٥٦٧هـ/ ٦٤١-١١٧١م. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩١م). ص ٣٩١.

كونه من ضرورات الحياة الاجتماعية التي لا غنى للأفراد عنها، قياساً على الجهاد حيث قال - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر أنواع الصناعات : " فلهذا قال غير واحد من الفقهاء من أصحاب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وغيرهم كأبي حامد الغزالي وأبي الفرج بن الجوزي، وغيرهم : إنّ هذه الصناعات فرض على الكفاية، فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بها، كما أنّ الجهاد فرض على الكفاية".^(١) ليس هذا فحسب، بل ذهب بعض فقهاءنا إلى أنّ العمل لاكتساب العيش، وقضاء الدين، والإنفاق على العيال، فرض عين على كل مسلم. من ذلك ما نصّ عليه ابن تيمية بقوله: " والمقصود هنا أنّ هذه الأعمال التي هي فرض على الكفاية متى لم يقيم بها غير الإنسان صارت فرض عين عليه، لاسيما إن كان غيره عاجزاً عنها".^(٢)

وفوق ذلك ما ذهب إليه - رحمه الله - من أنّ لدولة الإسلام أن تُجبر الناس على أي عمل كان، إذا كانت الأمة بحاجة إليه، وامتنع الناس عن القيام به، لكنه اشترط أن يعطى العامل أجر المثل، وليس له أن يطلب أكثر من ذلك. وضرب مثلاً بالفلاحة، أو النساجة، أو البناء إن كان الناس محتاجين إليها، وقد أعرض الناس عنها.^(٣)

وأكد ذلك ابن القيم بصورة واضحة، وهو يتحدث عن حاجة الناس إلى قسم من الصناعات أكثر من حاجتهم لصناعات أخرى ، فقال بعد سرده مجموعة من الصناعات: " إنّ هذه الأعمال متى لم يقيم بها إلا شخص واحد صارت فرض عين

(١) ابن تيمية، الإمام تقي الدين أبو العباس أحمد (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م) الحسبة في الإسلام. تحقيق سيّد بن محمد

ابن أبي سعدة . الكويت: مكتبة دار الأرقم، ١٤٠٣هـ - (١٩٨٣م). ص ٢٧.

(٢) المصدر نفسه. ص ٢٩.

(٣) المصدر نفسه. ص ٢٩.

عليه، فإذا كان الناس محتاجين إلى فلاحه قوم، أو نساجتهم، أو بنائهم، صارت هذه الأعمال مستحقة عليهم، ويجبرهم ولي الأمر عليها بعوض المثل".^(١)

وكان من اهتمام فقهاءنا الكبير بالعمل والتشجيع عليه أنهم اختلفوا في تحديد العمل الذي يقرب إلى الله أكثر من غيره : التجارة - كما ورد في بعض الأحاديث - أم الزراعة - كما ورد في أحاديث أخرى - أم الصناعة. فذهب الإمام الشافعي إلى أن التجارة أفضل الكسب. وذهب آخرون إلى أن الزراعة أفضل الكسب، لما فيها من النفع العام للآدمي والحيوان. وذهب فريق ثالث إلى تفضيل الصناعة مستدلين على ذلك بحديث: "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده"، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده".^(٢)

وقد أوضح ذلك ابن حجر وهو يشرح هذا الحديث، إذ قال: "وفي الحديث فضل العمل باليد، وتقدم ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره غيره".^(٣) وتناسب الإشارة هنا إلى أن هذا الاختلاف إنما يدل على اهتمام أئمتنا بالعمل، فكانوا يرونه قرينة تقترب بها العبد إلى الله، وإلا فإن الأفضلية لا تكون عامّة شاملة في كل زمان ومكان. فقد تكون الصناعة أفضل في مجتمع هو بحاجة ماسة إليها، لكن مجتمعاً آخر تتوافر فيه الصناعات، وهو بحاجة إلى الزراعة، فتكون لها الأفضلية. إذاً الأفضلية تتعلق بالمصلحة العامة للبلد. لا بأفضلية حرفة أو عمل على آخر.^(٤)

ثم إن كثيراً من أعلام المسلمين وعلمائهم لم يكتفوا بالدعوة إلى العمل والكسب فحسب، بل مارسوا بأنفسهم الكثير من المهن والحرف. فقد عمل الإمام أحمد بن

(١) ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م).

الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق محمد حامد الفقي. بيروت: دار الكتب العلمية. ص ٢٤٨.

(٢) البخاري. الصحيح. ج ٢، ص ٧٣٠.

(٣) ابن حجر. فتح الباري. ج ٤، ص ٣٠٦.

(٤) إبراهيم النعمة. العمل والعمال في الفكر الإسلامي. جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

ص ٢١، ٢٠.

حنبل نساجاً، وكان الإمام أبو حنيفة خزازاً، ومن العلماء من كان يعمل في النسيج والخصوص، وغيرها من المهن التي كانت سائدة في المجتمعات الإسلامية آنذاك، ويمكن رصد ذلك أيضاً من خلال تسمي كثير من الفقهاء بأسماء أهل الحرف والمهن، فنجد من بينهم: القطان، والباقلاني، والدقاق، والسراج، والوراق، وغير ذلك من الأسماء الدالة على احترافهم بعض المهن والحرف.^(١) كما يمكن التذليل على ذلك من خلال المؤلف الذي صنّفه محمد بن إسحق الهروي بعنوان: "كتاب الصنّاع من الفقهاء والمحدثين".^(٢)

عمل المرأة في الإسلام :

ولعله من المناسب هنا الإشارة إلى أنّ الله تعالى وهو خالق الإنسان بجنسيه : الرجل والمرأة ، قد جعل كلاّ منهما ميسر لما خُلق له، ولكلّ منهما دوره في الحياة الذي يتفق مع خلقه وتهيئته، فقد خلق الله الرجل وأودع فيه من الخصائص الجسمية والنفسية ما يستطيع بها النهوض بتبعاته، وخلق المرأة وأودعها أيضاً من الخصائص الجسمية والنفسية ما تستطيع بها القيام بمهامها المنوطة بها.^(٣)

فالمرأة في نظر الإسلام لها مجالها الذي تعمل فيه، وتحسن العمل، وعملها الأساس في بيتها لتربية أولادها، والقيام على شؤونهم، وما يستلزم البيت من تهيئة ورعاية، وما يتبع ذلك من تدبير لمال زوجها وأولاده، وهو يماثل عمل الرجل في ميدانه خارج منزلها. كما أنّ لها أن تعمل في بيتها، أو خارجه في المجال المناسب لها، بما ينسجم مع

(١) ضيف الله بن يحيى الزهراني، ضوابط جودة المواد الغذائية في مصر خلال العصر الأيوبي، ٥٦٤-٦٤٨هـ/ ١١٦٩-١٢٥٠م، سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية (٧) مكة المكرمة، جامعة أم القرى، (١٤١٠هـ)، ص١٤١٣.

(٢) إبراهيم النعمة. مرجع سابق. ص٢٣.

(٣) محمد عبد السلام أبو النيل. حقوق المرأة في الإسلام: ولهنّ مثل الذي عليهنّ. ط٢. - القاهرة: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. ١٤١٨هـ (١٩٩٨م). ص١٢٨.

طبيعتها وإمكاناتها، وفي حدود التشريعات والآداب التي وضعها الإسلام بشأن المرأة من حشمة، وعدم اختلاط بالرجال الأجانب، وغير ذلك من الآداب التي ترفع من شأنها، وتحافظ على مكانتها في المجتمع.^(١)

وعلى الرغم من أن ديننا الإسلامي - مراعاة للطبيعة التي خلق الله عليها ولها المرأة - قد وضع عنها جميع الواجبات التي تلزمها بالخروج عن بيتها كما يخرج الرجل، فلم يوجب عليها الخروج لحضور الجمع والجماعات، ولم يوجب عليها الجهاد، وفوق ذلك فقد جعل القوامة، ومسؤولية كسب المال والإنفاق على البيت والأولاد للرجل توافقاً مع طبيعة خلقه واستعداده الجسمي والفطري،^(٢) إلا أن الإسلام مع ذلك لم يتشدد في منع المرأة من الخروج من بيتها ؛ لأن ذلك قد يكون في بعض الظروف لازماً لها كأن يعدم وجود القيم من الرجال، أو تضطر إلى الخروج إلى العمل لظروف قيم الأسرة، بضالة معاشه، أو مرضه، أو عجزه، أو لسبب آخر من هذا القبيل ، فكل هذه الأحوال ونحوها قد جعلها الإسلام عذراً ومبرراً لخروج المرأة من بيتها طلباً للعمل.^(٣)

ووفقاً لذلك، فإننا نسلّم بأن هناك فروقاً في التكوين الجسماني، والنفسي، والعاطفي بين الرجل والمرأة، مما يستلزم معه التسليم بعدم مناسبة العديد من الأعمال التي يقوم بها الرجال لأن تقوم بها النساء، إمّا لأن بدنها لا يحتملها، وإمّا لكونها تنافي ما فطرها الله عليه من خفر وحياء. ولهذا فإن إسهام المرأة في العمل خارج بيتها لابد أن يكون محدوداً ومشروطاً. بما يتناسب وطبيعتها وتكوينها : كتطبيب النساء، وتمريضهنّ، وتعليم بنات جنسها، ورعاية الأمومة والطفولة، والقيام ببعض الأعمال

(١) عباس حسن الحسيني. دستور المهن في الإسلام. القاهرة: مؤسسة الأسعد للطباعة. - ص ٣٠١.

(٢) وفي ذلك وجه تعالى بقوله: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم﴾. [النساء، آية : ٣٤].

(٣) علي بن محمد الأنصاري. المرأة: تعليمها وعملها في الشريعة. الرياض: إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، ضمن سلسلة بحوث طلابية (١) رجب ١٤٠٦هـ (مارس ١٩٨٦م). ص ٦٦-٦٧.

البسيطة التي تماثل عملها في بيتها، وذلك بما يتناسب مع حشمتها وحفظها. وأمّا شروط ذلك، فأبرزها : ألا يتعارض عملها مع وظيفتها الأساسية في الحياة، وهي الزوجة والأم، وألا يتنافى مع توجيهات الإسلام بشأنها بما يحقق صيانتها، ويحافظ على كرامتها.^(١)

ونماذج النساء العاملات المنتجات في حضارتنا الإسلامية تتواتر في كثيرٍ من المصادر منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، من ذلك ما رواه البيهقي من أنّ ربيعة زوج عبد الله بن مسعود وأمّ ولده - رضي الله عنهم أجمعين - أنّها كانت امرأة صنّاعة وليس لعبد الله بن مسعود مال، وأنّما كانت تنفق عليه وعلى ولده من ثمن صنعتها، فقالت له: لقد شغلتنى أنت وولدك عن الصدقة فما استطيع أن أتصدق، فشقّ ذلك على عبد الله بن مسعود وطلبه أن تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فسألت رسول الله عن حكم ذلك فقال لها صلى الله عليه وسلم : " لك في ذلك أجر ما أنفقت عليهم، فأنفقي عليهم".^(٢) كما تدلّ الأحاديث الواردة بهذا الشأن عن إجادة النساء لكثير من الأعمال والمشغولات الحرفية البسيطة التي كنّ يقمن بها في منازلهنّ في الغالب كالنسيج والخواصة والخياطة،^(٣) وقد امتدحت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنها - هذا النمط من العمل بقولها: " الخير يدور في البيت مادام فيه المغزل"^(٤) واستمرت تلك الحرف البسيطة تمارس عبر العصور الإسلامية في كثيرٍ من المنازل، وهو ما يمكن أن يُطلق عليه في العرف الحديث (الأسر المنتجة).

(١) محمد عبد السلام أبو النيل. المرجع السابق. ص ١٣٥، ١٣٦.

(٢) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦ م). السنن الكبرى. تحقيق محمد عبدالقادر عطا.

بيروت: دار الكتب العلمية. ١٤١٤هـ (١٩٩٤م). ج ٤، ص ١٧٨.

(٣) لمزيد من التفصيل حول تلك الحرف النسائية البسيطة أنظر: العمري. الحرف والصناعات. ص ٢٨٤-٢٩٢.

(٤) الحمّاذي، أبوشجاع شيرويه بن شهر دار الديلمي (ت ٥٠٩هـ/ ١١١٥ م). الفردوس بمأثور الخطاب.

السعيد بن بسويو زغلول. بيروت: دار الكتب العلمية، (١٩٨٦م). ج ٢، ص ٢٠١.

وهي الحرف التي تمارس في المنازل ولا تحتاج في الغالب إلى معدات وآلات مكلفة، كما أنه يسهل تسويقها محلياً.

ثانياً: النهي عن البطالة والكسل:

كما دعا الإسلام إلى العمل بقوة، وحفز إليه، ورغب الناس في السعي لطلب الرزق، فإنه حذر من البطالة والكسل، ونهى عن القعود والتواكل، والاستسلام للفقر، واستجداء الناس. فكل قادر على العمل مُطالب في شريعة الإسلام بأن يسعى، وي بذل جهده في سبيل طلب الرزق.^(١)

ولقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دروساً عديدة في حثّ القادرين على العمل، والنهي عن البطالة، والركون إلى الكسل، والاعتكال على الآخرين في التعيش. فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنّ رجلاً من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله فقال صلى الله عليه وسلم: "أما في بيتك شيء؟" قال الرجل: "بلى جلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء" قال: "اتني بهما" قال: فأتاه بهما فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، وقال: "من يشتري هذين" قال رجل: "أنا آخذهما بدرهم" قال: "من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثاً؟" قال رجل: "أنا آخذهما بدرهمين" فأعطاهما أياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال: "اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلِكَ واشتر بالآخر قدوماً فأتني به"، فأتاه به، فشدد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عوداً بيده ثم قال له: "اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً"، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وبيع بعضها طعاماً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة".^(٢)

(١) الديلمي. مرجع سابق. ص ٣٥٠.

(٢) رواه أبو داود في سننه، واللفظ له. والجلس: كساء غليظ يكون على ظهر البعير. والقعب: القدح. والنكتة: أثر كالنقطة. (الديلمي. مرجع سابق. ص ٣٥٠، ٣٥١).

وأكد الإسلام أن احتراف أي عمل من الأعمال مهما كان صغيراً وبسيطاً، خيراً من الفراغ والبطالة واستجداء الناس، فقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه".^(١) وفي ذلك توجيه كريم بشرف العمل وذم السؤال حتى ، وإن أجهد الإنسان نفسه في طلب العيش بامتهان أي : عمل مهما كان نوع العمل مادام العمل مشروعاً.

كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا نظر إلى رجل فأعجبه قال هل له حرفة ؟ فإن قالوا لا قال : سقط من عيني، قيل كيف ذاك يا رسول الله ؟ قال: لأن المؤمن إذا لم يكن ذا حرفة تعيش بدينه".^(٢)

ونهى صلى الله عليه وسلم عن تضييع الأولاد أو من يعولهم حيث قال: " كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت ".^(٣)

وانطلاقاً من هذا التوجيه النبوي الكريم اتفق المهاجرون عند مقدمهم المدينة مع إخوانهم الأنصار الذين كانوا يملكون الأراضي الزراعية بالمدينة بأن يعمل المهاجرون بأعمال زراعة الأرض نيابة عن الأنصار مقابل حصولهم على محصول هذه الأرض، وقد سجل الصحابي الجليل أنس بن مالك صورة هذا الاتفاق ، فقال: " لما قدم المهاجرون المدينة من مكة وليس بأيديهم ، يعني شيئاً ، وكانت الأنصار أهل الأرض

(١) البخاري. المصدر نفسه، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة. ج ٢، ص ٧٣٠.

(٢) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) الجامع لأحوال الراوي وآداب السامع، تحقيق محمد رأفت سعيد، الكويت، مكتبة الفلاح (١٤٠١هـ). ج ١، ص ٣٤.

(٣) أبو داود، السنن. ج ٢، ص ٢١٩.

والعقار ، فقا ستمهم الأنصار على أن يعطوهم ثمار أموالهم كل عام ، ويكفوهم العمل والمؤونة".^(١)

وفي السنهي عن البطالة والكسل: توجيه مشهور لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هو قوله: " لا يقعد أحدكم عن الرزق ويقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة".^(٢)

ولعمر- رضوان الله عليه - أثر مشهور في فضل السعي في طلب الرزق ، وهو قوله: " لأن أموت بين شعبي رحل ، أسعى في الأرض ، أبتغي من فضل الله كفاف وجهي ، أحب إلي من أن أموت غازياً".^(٣)

وكان الإمام أحمد بن حنبل يأمر الناس بأن يلزموا السوق طلباً للرزق الحلال. كما روي عنه أنه سُئل عن رجل يجلس في بيته أو في المسجد، ويقول: لا أعمل شيئاً حتى يأتي رزقي، فقال الإمام أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم: " جعل رزقي تحت ظل رمحي " ، وقوله عليه السلام حين ذكر الطير: " تغدو خماصاً وتروح بطاناً". فذكر أنها تغدو في طلب الرزق.^(٤)

كما سُئل الإمام أحمد عن التوكل، فقال: "التوكل حسن، ولكن ينبغي للرجل أن لا يكون عيلاً على الناس، ينبغي أن يعمل حتى يغني نفسه وعياله، ولا يترك العمل" وسُئل عن قوم لا يعملون ، ويقولون: نحن المتوكلون، فقال: " هؤلاء مبتدعة".^(٥)

(١) البخاري. الصحيح، كتاب الهبة وفضلها، باب فضل المنية. ج ٢، ص ٩٢٦.

(٢) الغزالي. إحياء علوم الدين. ج ٢، ص ٦٤.

(٣) ابن الجوزي. مناقب عمر بن الخطاب. تحقيق زينب إبراهيم القاروط. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ - (١٩٨٠م). ص ٢٠٦.

(٤) ابن الجوزي. تلبس إبليس. ص ٣٤٧ ، ٣٤٨.

(٥) البغدادي. الحث على التجارة والصناعة والعمل. ص ٨٧.

كما لا يميز الإسلام للإنسان أن يترك العمل، ويركن للراحة بحجة الانقطاع للعبادة، فقد هاجم العلامة ابن الجوزي العاطلين عن العمل الذين يحتجون بحجج واهية في تركهم للعمل.^(١)

ورغبة من الإسلام في الحث على بذل الجهد في طلب الرزق، والقضاء على البطالة، منع من إعطاء الصدقة للسوي القادر على العمل. وقد أكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث عبيد الله بن عدي الذي روى أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم يسألانه من الصدقة، فقلّب فيهما رسول الله صلى الله عليه وسلم البصر، ورآهما جليدين. فقال: "إن شئتما أعطيتكما ، ولا حظ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب".^(٢) وعلّق الصنعاني على الحديث بأنه من أدلة تحريم الصدقة على الغني وعلى القوي المكتسب، لأنّ حرفته صيرته في حكم الغني.^(٣)

وهكذا يتأكد من مجموع هذه التوجيهات الصريحة ضرورة الاعتماد على النفس في كسب الرزق، والرفع من قيمة العمل مهما كان نوعه ، حتى لا يتخاذل الناس في ميادين الحياة. ويركنون إلى الراحة والمسألة، والاعتماد على الآخرين. كما ترفض تلك التوجيهات أن يبقى في المجتمع قادرون على العمل وهم معطلون لطاقتهم، ومهدرون لأوقاتهم ماداموا قادرين على العطاء والبذل والاكتساب.

مجالات العمل في الإسلام :

كان لدعوة القرآن الكريم ، والتوجيهات النبوية الكريمة، وما أثر عن سلف الأمة وفقهائها في الحث على العمل، والرفع من شأن العاملين ، وكذا النهي عن

(١) تلبس إبليس، ص ٣٤٩.

(٢) رواه أحمد في مسنده. ج ٥، ص ٣٦٢، وقال أحمد: ما أجوده من حديث.

(٣) الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح (ت ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م). سبل السلام شرح بلوغ المرام لابن حجر.

ط ٤. القاهرة: مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م). ج ٢، ص ١٤٦.

الركون والكسل أبلغ الأثر في نفوس المسلمين ، فأقبلوا على مختلف أنواع الأعمال يتقنونها، ويحاولون التفوق فيها، وكان لهم السبق في كثير من الصناعات، وبرعوا كذلك في ميادين التجارة ، والزراعة ، ومختلف الأعمال اليدوية والفنية، وكان لذلك أثره الواضح فيما شهده العالم الإسلامي من ازدهار ورقي حضاري في مختلف ميادين الحياة. فقد نال العامل في الإسلام حرية تامة في اختيار العمل الذي يناسب فطرته، واستعداداته ، فتنوعت ميادين العمل ، وتعددت مجالاته ، تبعاً لتطور المجتمع واحتياجاته، ولم تجعل الشريعة الإسلامية للعمل حدوداً أو مجالات دون أخرى مادام ذلك العمل مباحاً ويبلغ بالإنسان غاية له فيها نفع، دون إضرارٍ بنفسه أو غيره فالدعوة إلى العمل دعوة واسعة دون قيود، وفي مختلف مجالات الحياة، وأشكال العمل وأنواعه، سواء أكان عملاً يدوياً في التجارة ، أم الصناعة، أم الزراعة، أم أي ميدان من ميادين المهن اليدوية البحتة. أم عملاً فنياً، أم فكرياً. ولم يُحظر منها إلا ما جاء النصُّ بتحريمه، كأن يكون فيه ضررٌ على العامل، أو على غيره، أو تضييع لوقته دون فائدة أو نتائج يذكر. وإباحة العمل بهذه الصورة، توسع من دائرته، فتعدد مجالاته، وتكثرت فرصه، وتنوع أشكاله وأغراضه.^(١)

ويشير ابن خلدون في مقدمته إلى أمهات الصنائع في النوع الإنساني، ويصفها بالكثرة لكثرة الأعمال المتداولة في العمران، وأنها تشدّ عن الحصر، ولا يأخذها العد. إلا أن منها ما هو ضروري في العمران ، أو شريف في الموضوع.

أما الضروري في العمران فذكر منها : الفلاحة ، والبناء ، والخياطة ، والنجارة والحياكة . وأما الشريفة بالموضوع فذكر منها : التوليد ، والكتابة ، والوراقة ، والطب^(٢) وكان من أبرز المهن والصناعات التي اشتهرت في المجتمع الإسلامي ما يأتي:

(١) الديلمي . مرجع سابق. ص ٣٥٤.

(٢) المقدمة. ص ٣٦٤.

الفلاحة أو الزراعة :

أفرد ابن خلدون فصلاً في صناعة الفلاحة، وعدّها من الصناعات الضرورية للعمران، وأنها من أقدم الصناعات لكونها محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان.^(١)، وأنّ الفلاح هو الذي يتعهد الأرض بالزراعة والإنبات.^(٢)

وتعدّ الزراعة من الدعائم المهمّة التي يرتكز عليها أي : نشاط بشري، وهي ترتقي وتزدهر بتوافر المقومات اللازمة لها من وفرة المياه، وخصوبة التربة، وتنوع المناخ، وأيضاً وفرة الأيدي العاملة. وهذه العوامل مجتمعة تؤدي - في الغالب - إلى غزارة الإنتاج الزراعي، وتنوع محاصيله.

ولقد ضمّت الدولة الإسلاميّة بين جنباتها أقاليم زراعية خصبة ، كانت الزراعة هي الحرفة الرئيسيّة فيها. فعمل المسلمون على استغلال تلك الأراضي في زراعة مجموعة من المحاصيل الزراعية الاستهلاكية : (كالحبوب ، والخضروات ، والفواكه، وأشجار الزيتون ، والنخيل) ، وكذا المحاصيل الزراعيّة المستخدمة في مجال الصناعة : (كالقطن، والكتّان، وقصب السكر، والسّمسم، وأنواع الزهور).^(٣)

ويمكن أن يُلحق بهذه المهنة حرفة الرعي وتربية المواشي، وهي من أهم الحرف التي عرفها العرب منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، بل إنّها أهم حرفة عرفها العرب قاطبة منذ قديم الزمان، وهي حرفة منتشرة عند البادية والحاضرة، حيث كان الناس يعتمدون على الرعي بصورة رئيسيّة مصدراً لتحصيل معاشهم.^(٤)

(١) المقدمة. ص ٣٦٥.

(٢) حسن الباشا. الفنون الإسلاميّة والوظائف على الآثار العربيّة. القاهرة: دار النهضة العربيّة، (١٩٦٦م). ج ٢، ص ٨٢٥.

(٣) أنور الرفاعي. الإسلام في حضارته ونظمه. ط ٣. دمشق: دار الفكر، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م) ص ٢٨٠-٢٩٤، وفيه تفصيلات واسعة لموضوع النشاط الزراعي، وتعدد محاصيله في الدولة الإسلاميّة .

(٤) عبد العزيز العمري. مرجع سابق. ص ٦٦-٨٤.

التجارة:

خلق الله الناس على حال يحتاج فيها بعضهم إلى بعض، فليس يملك كل فرد كل ما هو بحاجة إليه، بل يملك هذا البعض ما لا يستغني عنه ذاك، ويحتاج هو بعض ما يستغني عنه الآخرون، ومن ثم ألهمهم الله تعالى أن يتبادلوا السلع والمنافع بالبيع والشراء، حتى تستقيم الحياة، ويطلق على هذا التعامل: " التجارة "

وتعني التجارة بمعنى آخر : نقل السلع من مناطق الإنتاج وعرضها للبيع في مواقع الاستهلاك، ثم اتسع المعنى ليشمل البيع والشراء بمعناها الواسع.^(١) ويُعدّ النشاط التجاري من أهم أركان الاقتصاد في أي عصر من العصور، وهو لهذا مقياس لقوة اقتصاد إقليم، أو بلد من البلاد، كما أنّ التجارة عامل أساس في غنى مجتمع من المجتمعات من عدمه.

وقد أباح الإسلام التجارة بالنص القرآني الذي يصرح بأن التجارة ليست أكلاً لمال الناس بالباطل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ .^(٢) ، كما دعا الإسلام أيضاً في نصوص كثيرة من القرآن الكريم إلى الاشتغال بالبيع . من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَحْلَلْ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ .^(٣)

وهنا يجدر أن يشار أن من دواعي تحريم الربا، والنهي عنه أنه مدعاة إلى ترك العمل، والركون إلى الكسل لكونه مجلبة للمال عن طريق الفوائد دون القيام بعمل منتج سوى حصد جهد الآخرين دون السعي في سبل التجارة المشروعة، وقد توصل

(١) زيدان عبد الباقي. العمل والعمّال والمهن في الإسلام. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٣٩٨هـ - (١٩٧٨م) ص ٣٨.

(٢) سورة النساء: آية (٢٩).

(٣) سورة البقرة: آية (٢٧٥).

المفكرون الاقتصاديون في كثير من دول الغرب اليوم إلى هذه الحقيقة المرة، واعترفوا بها، ووصفوا الربا بأنه استغلال لجهد الآخرين، وسرقة لأتاعهم وكدهم، فهو ضمان لصاحب المال على حساب حقوق العاملين الكادحين.

وفي سنة نبينا صلى الله عليه وسلم دعوة قوية إلى العمل بالتجارة من خلال توجيهه المباشر صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى الاشتغال بالتجارة، كما عمل هو نفسه صلى الله عليه وسلم بالتجارة قبل البعثة حينما سافر إلى الشام بتجارة خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - ، وإثر ذلك عمل معظم صحابته الكرام بالتجارة، وتبعهم المسلمون في عصورهم المتتابعة حتى غدت التجارة سمة من سمات المسلمين، وأصبح لهم صلات تجارية مع معظم بلاد العالم وامتدت تجارتهم إلى الشرق حتى وصلت إلى الفلبين والصين، وإلى الغرب حتى وصلت بلاد الفرنجة ، وإلى الغرب حتى وصلت إلى نيجيريا والحبشة وساحل إفريقيا ، وإلى الشمال حتى وصلت إلى بلاد الروس.^(١)

كما نشطت حركة التجارة في كثير من المدن الإسلامية : (كمكة المكرمة، والمدينة المنورة، ودمشق، وبغداد، والبصرة، والكوفة، والقاهرة، والإسكندرية، وقرطبة، وإشبيلية ، وأصفهان ، وطرابلس ، وصيدا ، وبيروت..) وغيرها كثير من المدن التي أصبحت مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجاري الداخلي والخارجي، وفي المجالين البري والبحري. وانتشرت في تلك المدن الأسواق التجارية العامرة بشتى صنوف السلع والصناعات المحلية والمستوردة، كما كانت تُعقد في هذه المدن الأسواق الأسبوعية واليومية والموسمية، وتُجلب إلى تلك الأسواق سائر أنواع الإنتاج المحلي والخارجي ليباع في أسواقها نقداً أو مقايضة .

(١) صبحي الصالح. النظم الإسلامية نشأتها وتطورها. ط ٥. بيروت: دار العلم للملايين، (١٩٨٠م). ص ٣٩٣، ٣٩٤.

وقد مهر المسلمون في ارتياد البحار، وبرعوا في ذلك حتى ملكوا في أيديهم زمام التجارة بين الشرق والغرب، وكان مما ساعدهم في ذلك مهارتهم في ركوب البحار، ومعرفتهم بالبوصلة، والانتفاع بها، فجابوا البحار حاملة سفنهم : المنسوجات، والأطياب، والبخور، والسكر، والقطن، وآنية الزجاج، إلى أقاصي آسيا وإفريقية، وعادت محملة بالتوابل، والكافور، والحريز، من أقاصي القارة الآسيوية، والعاج، والأبنوس، من القارة الإفريقية.^(١)

الصناعة:

إنّ أي مجتمع من المجتمعات لا يخلو من مجموعة من الصناعات والحرف، ولكن تتفاوت المجتمعات فيما بينها كمّاً وكيفاً في كثيرٍ من المهن الصناعيّة، وذلك حسب ظروف كلّ مجتمع وإمكاناته، واحتياجاته.

وقد تركزت الصناعات في العصور الإسلاميّة المبكرة في الصناعات المتعلقة بالزراعة وما ينتج عنها في فترات الاستقرار، ويتحول ذلك الاهتمام إلى صناعات الأسلحة، والآلات العسكريّة في فترات الحروب والفتوحات نظراً لاحتياج المجتمع إلى تلك الصناعات في حروبهم المتواصلة مع المشركين، وكذا في تواصل حركة الفتوحات الإسلاميّة داخل الجزيرة وخارجها.

فعرفت مجموعة من الصناعات الحربية المختلفة : كالسيوف والرماح والنبال، والدروع والمغافر ، وغير ذلك من الأسلحة المعروفة آنذاك ، كما تطورت الصناعات العسكريّة في العصور الإسلاميّة المتعاقبة تطوراً سريعاً ، وذلك لـلحاجة إليها في الفتوحات المتواصلة للدولة الإسلاميّة، هذا إضافة إلى ما كان منتشراً

(١) إبراهيم سلمان الكروي، وعبدالتواب شرف الدين. المرجع في الحضارة العربية الإسلاميّة . الكويت: ذات السلاسل، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤ م) . ص ١٩٣.

من صناعات حرفية أخرى في مجالات الأثاث والحلي والاحتياجات الحياتية اليومية منذ عصور الإسلام المبكرة.

كما برع المسلمون في الصناعات المتعلقة بالنسيج أو التطريز ، وكذا صناعة أنواع الأصباغ ، وصناعة الفخّار ، والكاشاني والقرمذ ، وكذا الصياغة والنقوش الخزفية الجميلة، وغير ذلك من الصناعات الضرورية والتكميلية في المجتمع الإسلامي.^(١) وكان من أبرز عوامل التطور الصناعي للدولة الإسلامية وفرة المواد الخام اللازمة للصناعة، إضافة إلى وفرة الأيدي العاملة، الذين ضمن الإسلام حقوقهم وحفظها لهم. مما كان له الأثر الكبير في تقدم الصناعات المختلفة، وفي غزارة الإنتاج الصناعي، خاصّة أنّ المسلمين قد عملوا على استغلال مواقع جديدة توافرت فيها مختلف أنواع الثروات المعدنية، وذلك بعد توسع الدولة الإسلامية إثر حركة الفتوحات وكان من أبرز المهن الصناعيّة التي اشتهرت في المجتمعات الإسلاميّة وكان لها أثرها الواضح في تقدم المجتمعات الإسلاميّة ورقيتها ما يأتي:

١ - البناء : والبناءُ : اسم لمن يحترف مهنة البناء سواء بالحجر أو الطوب أو بغيرهما، وهي مهنة يمتد عمل صاحبها إلى نحت الأحجار وحفرها، وإلى زخرفة الجدران والسقوف.^(٢)

ويصف ابن خلدون البنائين بأنهم أول صنّاع العمران الحضري وأقدمهم، وأنّ صناعة البناء هي العمل في إنجاز البيوت والمنازل للسكن في المدن والأسواق والمساجد، وأنه لا بد أن يتوافر في هؤلاء البنائين معرفة الصنعة. وذكر أنهم متفاوتون في إجادتها. فمنهم البصير الماهر، ومنهم القاصر، ثمّ هي صنعة تتنوع أنواعاً كثيرة.^(٣)

(١) صبحي الصالح، مرجع سابق. ص ٤٠٠-٤٠٨، وفيه تفصيلات واسعة لمجموعة من الصناعات وفق توزيعها على بلدان العالم الإسلامي.

(٢) حسن الباشا. المرجع السابق. ج ١، ص ٣٠٨.

(٣) المقدمة، ص ٣٦٥، ٣٦٦.

٢ - النجارة: وهي حرفة تحتاج إلى المهارة أيضاً ومادتها الخشب، وكان النجارون يقومون بصنع السقوف والأبواب والكراسي، والمراكب البحرية، وكذا الأقواس والنبال والرماح، والأطباق والأقداح، وغيرها. وهي صناعة محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها، ومعلم هذه الصناعة الأول في الخليفة هو نبينا نوح عليه السلام، ويقال: إن أئمة الهندسة اليونانيين كلهم أئمة في هذه الصناعة. (١)

وتمتاز المجتمعات المتحضرة بارتقاء النجارة، وقد ارتقت النجارة بتخصصاتها المختلفة رقياً كبيراً في الدول الإسلامية، واشتهر عددٌ كبيرٌ من النجارين البارزين الذين خلفوا تحفاً خشبيةً على قدر كبير من جودة الصنعة والقيمة الفنية. (٢)

٣ - الحياكة والخياطة: ويعدها ابن خلدون من الحرف الضرورية للعمران، وكان الحاكة ينسجون الغزل من الصوف والكتان والقطن. أما الخياطون: فهم الذين يعملون على تقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال، وعدهما من أقدم الصناعات في الخليفة. (٣)

٤ - الصياغة: الصائغ هو صانع الحلبي الذي يصوغها ويشكلها، والصياغة حرفته. وكان للصاغة أسواق خاصة في المدن الإسلامية الكبيرة، وقد خلف الصاغة المسلمون حلياً ومصوغات على مستوى رفيع من الجمال والفن. (٤) كما يرتبط بهذه المهنة عرفاء مهمتهم تمييز المصوغات ومعرفة موادها ومعادنها لضمان عدم الغش واستغلال جهل الناس في كثير من المعادن النفيسة، ويرتبط هؤلاء العرفاء بمسؤولية الحسبة، ومهمة هؤلاء شبيهة بمهمات دوائر المواصفات والمقاييس في عصورنا الحاضرة.

(١) المصدر نفسه، ص ٣٦٨، ٣٦٩.

(٢) حسن الباشا. مرجع سابق. ج ٣، ص ١٢٦٦.

(٣) المقدمة، ص ٣٦٩، ٣٧٠.

(٤) حسن الباشا. المرجع السابق. ج ٢، ص ٧٠٠.

٥- الحدادة: وصاحبها هو الحدّاد، وهو من يُعالج الحديد، ويقوم بصناعة الأدوات اللازمة من الحديد من سلاح، وسكاكين وأوانٍ، ومبارد، وغيرها.^(١)

وتشير مصادر الحضارة الإسلامية إلى مجموعة من الحدادين الذين كان لهم أثر في تطور الصناعات التي تعتمد على الحديد، كما أنّ هذه المصنوعات كانت كثيرة ومنوعة، ولقد كان لهؤلاء سوقٌ خاصّة بهم في كثيرٍ من المدن الإسلاميّة .

ومن المعروف أنّ الصناعات المعدنيّة بما فيها صناعة الحديد كان لها شأنٌ كبيرٌ في الحضارة الإسلاميّة ، وقد وصلنا كثير من تلك الصناعات. كان من أبرزها الأسلحة، والتحف المعدنيّة، التي تشهد للصانع المسلم ببروزه في هذا المجال. وقد حرص كثيرٌ من هؤلاء الصنّاع على نقش أسمائهم على مصنوعاتهم، اعتزازاً منهم بهذا الإنتاج ورغبة في تخليد ذكركم، كما عرفت بعض الأسواق في المدن الإسلاميّة باسمهم، بل عرفت بعض الآثار بهم. من ذلك جامع الحدادين، وكذا حمام الحدادين، وهما بحلب.^(٢)

٦- السقاية: وهم فئة ضخمة كان عملهم يقوم على حمل الماء النقي الصالح للشرب من الأنهار لاستعماله في البيوت. وكان هؤلاء يحملون الماء بالقرب أو الروايا.^(٣) وكان لهم أثرٌ كبير في توفير المياه، وجلبها في كثيرٍ من المدن الإسلاميّة .

كما أنّ هناك عشرات من المهن والصناعات الأخرى التي تمسّ كل ما يحتاجه الإنسان من صناعات، من هذه المهن : (صناعة الزجاج، وصناعة الورق، وصناعة الفخار، وصناعة العطور، والجزارة، والخرازة ، والخواصة وأعمال الحصير، والصناعات

(١) المرجع نفسه، ج ١، ص ٤١٨.

(٢) المرجع نفسه، ج ١، ص ٤١٩-٤٢١.

(٣) الكروي، وعبدالتواب شرف الدين، مرجع سابق، ص ١٩٠.

الجلدية، والصباغة، والدباغة، والحلاقة)، بل ربما وجدنا في بعض عصور المسلمين عدة تفريعات لصناعة واحدة وذلك حسب أهمية الصناعة وتقسيماتها، مما يصعب حصرها هنا، إلا أنه يمكن القول : إنّ هذه الصناعات جميعها قد بلغت من التخصص والدقة ما جعل مجموعة من الصنّاع يتناوبون على الصناعة الواحدة حتى تتم.^(١)

إضافة إلى ذلك، فقد وجد العديد من الحرف ذات الصبغة العلمية أو الصحيّة، فقد وجد من يحترف القراءة والكتابة منذ عصور الإسلام الأولى، حيث كان هؤلاء يكتبون للناس ما يريدون، ومنهم من يقوم بتعليم القراءة والكتابة بأجر، كما أنّ الطبّ كان من الحرف التي اشتغل الناس بها منذ عصور مبكرة، وكانت مصدر رزق لمجموعة ممن قاموا بمعالجة المرضى، كما وجد ممرضون وممرضات احترفا الإشراف على المرضى ورعايتهم.^(٢)

من هذا كله ندرك أهمية اتساع دائرة العمل في الإسلام، وتعدد مجالاته، وتنوعها، وجدير بالذكر هنا أنّ كثيراً من هذه الأعمال يتمّ الإشراف عليها وتنظيمها من قبل النقابات والتنظيمات المختصة بكلّ مهنة، وهي التي ترخص - في الغالب - لمزاولة أي منها. وحتى تتحقق مصالح الناس بشمولها، وتلبى مختلف متطلباتهم، ورغباتهم، وجب على المسلمين، وبخاصّة ولاية الأمر فيهم، تأهيل من يقوم بكل باب من أبواب العمل وفروعه، وذلك بالتكفل بتوفير التعليم المتخصص، والتأهيل السليم الذي يقوم على تحري قدرات كلّ شخص لإعدادة لما يناسبه من عمل، مع إيجاد الدوافع والخوافز، وتنميتها، وذلك لدفع الجميع للتعاون في مجال العمل لتخطو الأمة خطوات ثابتة نحو النماء والازدهار الحضاري المنشود.^(٣)

(١) أكرم حسن العلي. دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥٢٢م) دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية. دمشق: الشركة المتحدة للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م). ص ٢٣٩.

(٢) عبد العزيز العمري. مرجع سابق. ص ٢٣٣-٢٦٥. وفيها تفصيلات واسعة لهذه الحرف في الحجاز في العصر النبوي.

(٣) الديلمي. مرجع سابق. ص ٣٦٠، ٣٦١.

طوائف العمال، وتنظيماتهم في المجتمعات الإسلامية :

كما اهتم المسلمون بالتنظيمات العمالية الملبية لاحتياجات المجتمعات الإسلامية، والهادفة إلى تحقيق التوازن المثالي في الحقوق والواجبات بين أطراف العمل الثلاثة ، مما مكّن العامل من التمتع بمكانة مرموقة في المجتمع الإسلامي لم تشهد المجتمعات الأخرى لها مثيلاً.

ونتيجة للتطور الاقتصادي والتنظيمي في كثير من المجتمعات الإسلامية، فقد عُرف عن أصحاب الحرف والصناعات أنهم كانوا يعيشون داخل المجتمع الإسلامي ضمن تكتلات مهنية يمكن أن يُطلق عليها: "تصنيفات عمالية أو طوائف عمالية" وهو ما يقابل اصطلاح "النقابات العمالية" في العُرف الحديث رغم اختلافها بعض الشيء عن التنظيم الحديث لهذه النقابات.

وكان مصطلح : " التصنيف " هو الغالب في الإطلاق على هذا التنظيم في الحضارة الإسلامية . وكان قد ورد مفهوم هذا المصطلح في المعاجم اللغوية على النحو الآتي:

عند الرازي ورد الصنف بمعنى : النوع. وتصنيف الشيء ، أي : جعله أصنافاً وتمييز بعضه عن بعض.^(١)

وعند ابن منظور جاءت كلمة "صنف" بمعنى النوع، والضرب من الشيء، والجمع أصناف، وصنوف. والتصنيف: تمييز الأشياء بعضها عن بعض. وقيل الصنف: طائفة من كل شيء، وكل ضرب من الأشياء صنف على حدة.^(٢)

(١) مختار الصحاح، ص ٣٧١.

(٢) لسان العرب. ج ٤، ص ٢٥١٠ ، ٢٥١١.

وفي تاج العروس للزبيدي أتى الصنف بمعنى " الطائفة من كل شيء، وكل ضرب من الأشياء صنف على حدة. وصنّفه تصنيفاً : جعله أصنافاً، وميّز بعضه عن بعض " (١).

ويخلص أحد الباحثين بعد عرض هذه التعريفات إلى أنّ كلمة "صنف" استخدمت للدلالة على الجماعة الحرفيّة والمهنية في المجتمع الإسلامي في كثير من المصادر التاريخية. كما يشار للجماعات الحرفية "بأصحاب المهن". "وأصحاب الحرف". و"أرباب المهن والحرف". وأنّ هناك مصطلحات أخرى استخدمت في بعض البلدان مثل كلمة "كار" وهي كلمة فارسية تعني : الشغل أو العمل أو الحرفة. وفي بلاد المغرب استخدم مصطلح "حنطة" للتعبير عن أهل الحرف والمهن ، وتعني : الحرفة أو الصفة. ويستخدمون كذلك لفظة " أهل الصنائع " للدلالة على أرباب الحرف والمهن المختلفة. (٢)

نشأة الطوائف العماليّة وتطور وظائفها في المجتمعات الإسلاميّة :

اختلف الباحثون في نشأة الطوائف والأصناف وتطورها في المجتمعات الإسلاميّة بين من يرى أنّها قرية الشبه بنقابات الحرف التي كانت سائدة في العصر البيزنطي، وبين من ينفي وجود أدنى صلة بين ما وجد في التنظيم الإسلامي وما كان سائداً لدى البيزنطيين في كثير من المناطق التي كانت خاضعة لهم قبل الفتوحات الإسلاميّة ، إضافة إلى أنّ بعض الباحثين ينفي وجود أي إشارة لنشأة النقابات العماليّة في العالم الإسلامي قبل القرن الثالث أو الرابع الهجريين، إلّا أنّ الثابت وثائقياً أنّ انتظام سائر الحرف والصناعات في شكل نقابات كان معروفاً في كثيرٍ من المناطق التي خضعت للحكم الإسلامي وبالتحديد في مصر منذ العصر الروماني والبيزنطي، وكان الغرض الأساس

(١) الزبيدي، تاج العروس، ٣٧-٣٦/٢٤.

(٢) الزهراني، مرجع سابق. ص ١١، ١٠، وقد أورد جميع المصطلحات من مصادرها ونسبها إلى بلدانها.

من هذا التنظيم هو ضمان جمع الضرائب وتقرير الالتزامات المالية الأخرى، وأنّ المسلمين قد ورثوا هذا التنظيم من بين تلك التنظيمات والتقاليد البيزنطية التي أبقوا عليها بعد الفتح الإسلامي لمصر، حيث كان ذكر النقابات شائعاً في مصر إبان الفتح الإسلامي، فقد ورد ذكر النقابات في برديات إكسير نخوس (البهنسا) حيث ذكرت نقابة الصيّاغ، وقائمة بأنواع الحلّي مرفوعة إلى مسؤول السوق، ولم يطرأ على هذا التنظيم أي تغيير يذكر سوى شيوع استخدام الطوائف والأصناف واختفاء مصطلح النقابات في كثير من العصور الإسلامية، فأصبح أهل الحرف في المدن الإسلامية يشار إليهم بالأصناف، وأصحاب المهن وأهل الصنائع بالطوائف حيث قويت الرابطة بينهم، وصار كلّ يشعر بالارتباط الوثيق بزملائه من أهل حرفته، وصار من أحوالهم المأثورة "الصناعة نسب".^(١)

وقد ظهرت تلك الأصناف - بصورة أكثر وضوحاً - إثر النمو الحضاري في كثير من المدن الإسلامية في العصر العباسي منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وذلك في عدد من المدن الرئيسية في العراق والشام ومصر، وبعض ولايات المشرق الإسلامي وبلاد الأندلس.^(٢)

وهذا التنظيم العمالي جاء محاولة من أهل الحرف والمهن الصناعية لمجاراة التطور الاقتصادي والتنظيمي الذي كانت تعيشه الدولة الإسلامية ومحاولة لتحسين أوضاعهم المعيشية والتنظيمية وفقاً لهذا التطور. وقد مثلت تلك الأصناف ملامح اجتماعية جديدة في المجتمع الإسلامي كان لها أثرها الواضح في بناء هذه المجتمعات

(١) السيد طه أبو سديرة. الحرف والصناعات في مصر الإسلامية . ص ٣٨١-٣٨٣.

(٢) الكروي، وعبدالتواب شرف الدين، مرجع سابق. ص ١٩١.

ورقيها.^(١) كما أن ابن خلدون قد ربط بين قيام المدن وازدهار الحياة فيها ونمو العمران بها، وبين الطلب المتزايد على أرباب الحرف وتقدم الصنائع وازدهارها.^(٢)

إلا أن حسين مؤنس يشير إلى أن تلك التجمعات المهنية التي انتشرت في العالم الإسلامي في بعض عصوره، لم تكن تنظيمات عمالية بالمعنى المعروف في العصر الحديث (نقابات)، وإنما كانت عبارة عن إطارات وتنظيمات مهنية اجتماعية تجمع طوائف من الناس لهم مصالح مشتركة، وأنها لم تكن مقصورة على العمال، وإنما كانت توجد أيضاً لدى كثير من التجمعات ذات الروابط المشتركة، وأنها تمثل بداخلها أسرة واحدة تربط بين أفرادها بروابط تتعدى روابط المهنة والمصلحة المشتركة.^(٣)

ومع تسليم الباحث بما أشار إليه (مؤنس) حول تلك التجمعات العمالية إلا أنه يكفي حسب إشارته أن تكون تلك التنظيمات بمثابة الأسرة الواحدة المترابطة بين أفرادها بروابط وثيقة، وفوق ذلك فهي روابط تتعدى روابط المهنة، والمصالح المشتركة - كما أشار مؤنس - بمعنى أنها كانت تتابع أحوال أصحاب المهنة وأبنائهم حتى في حياتهم الخاصة داخل المجتمع، وهذا وحده كاف لتشبيه تلك التنظيمات بما يشتهر حديثاً باسم (النقابات العمالية). وليس بالضرورة أن تتطابق مهمات تلك التنظيمات مع ما تقوم به التنظيمات الحديثة من مهمات، وذلك لاختلاف مصادر التشريع بينهما تلك المصادر المحركة لطبيعة العلاقات العمالية بين الإسلام وغيره من النظم الحديثة.

وكان من ضمن الاختلاف بين التنظيم العمالي في الإسلام والتنظيمات المعاصرة قضية مراقبة أصحاب الحرف، وأسلوب معالجة الخلافات التي بين العمال فيما بينهم من ناحية، وبينهم وبين أصحاب المهن الأخرى من ناحية ثانية، وهي نزاعات تتولى تسويتها النقابات المتخصصة في التنظيم المعاصر، على حين كانت تلك المهمة يتولاها

(١) المرجع نفسه. ص ١٩١.

(٢) المقدمة. ص ٣٦٣.

(٣) حسين مؤنس. عالم الإسلام. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٠هـ - (١٩٩٨م). ص ٢١٦.

المحتسب في كثير من العصور الإسلامية ، فهو المعني بمراقبة الحرف ومتابعة أصحابها، ومستوى كل حرفة، وكان شيخ الحرفة يتولى مهمة تسوية أي خلاف ينشأ بين المنتسبين لحرفته، أو تلك التي ربما تنشأ بين مستفيد وصاحب عمل، وقد يصل الأمر إلى التقاء بين شيوخ أكثر من مهنة لتسوية خلافات مشتركة بينهم.

ويمكن أن يكون وضوح العلاقة بين العمال وأصحاب الأعمال، وتحديد حقوق كل منهما على الآخر في التنظيم الإسلامي، ومن ثم قيام صاحب العمل بواجبه تجاه العامل، وتأدية العامل عمله بإتقان وإخلاص وفق أحكام وآداب غرسها ديننا الحنيف في نفس كل واحد من الطرفين، والتزام كل منهما بما عليه من واجبات وحقوق، يمكن أن يكون ذلك سبباً في الحد من وجود ما يسمى بالمشكلات العمالية التي تعيشها كثير من التنظيمات البشرية، وتعاني منها أئمة معاناة مما فوت الحاجة إلى وجود دور من أدوار التنظيمات النقابية التي وجدت في العصور الحديثة.

ووفق ذلك يتقرر أن تصنيف العمال وفق اختصاصاتهم، ومهنتهم - كما سبقت الإشارة إليه- ماهو إلا وجه من أوجه التنظيم النقابي في المجتمعات الإسلامية ، بل على العكس قد يتوافر لتنظيمات العمل في الإسلام مساحات من الحرية، والصلاحية تنعدم عند كثير من التنظيمات الحديثة، ويمكن طرق جوانب هذا التنظيم وتطور تنظيماته وفق النقاط الآتية:

١- تنظيم الطائفة ومهامها :

انتشر هذا التنظيم في كثير من البلاد الإسلامية ، فكان لكل حرفة أو صناعة طائفة ترعى مصالحها برئاسة شيخ هذه الصناعة الذي كان يتم انتخابه - في الغالب - من بين أفراد الطائفة، وذلك لتنظيم الأمور المتعلقة بالحرفة، ورعاية مصالح أفرادها، والحفاظ على أسرار الحرفة، وتحديد الأجور، والحفاظ على مستوى جودة الصناعة التي يقوم بها هؤلاء، كما أنه يمكن عن طريق هذا التصنيف معالجة المشكلات

المتعلقة بالمهنة سواء بين العمّال وأصحاب العمل أو بين أصحاب المهنة وأصحاب مهنة أخرى ترتبط المصالح معهم.^(١)

كما أنه كان لكل طائفة تنظيمات خاصة بها ، وظيفتها المحافظة على مصالح العاملين في الحرفة نفسها، وتحديد مستوى العمل فيها، وإلزام الراغبين في الدخول فيها بمنهج معين من الدراسة والتمرين والصناعة.

وكان من تقاليد طوائف الحرف والصنّاع الحفاظ على الأسرار الفنية الدقيقة للصناعة التي اكتسبوها بطول مران وممارسة. حيث كانت كلّ حرفة حكراً على أفرادها وأسرهم، وكانوا لا يطلعون أحداً على أسرارها حتى لا يداخلهم من تُخشى مشاركته لهم في هذه الحرفة، ولعلّ هذا ما يُفسر ما شاع من تخصيص بعض الأسر في حرفة واحدة يتوارثها الأبناء عن الآباء.^(٢)

وكان لكل صنف تعليمات مكتوبة - أشبه ما تكون بتنظيمات العمل والعمال في أيامنا هذه - وهذه التعليمات تنظم علاقات العمل سواء العمال مع صاحب العمل أو حقوقهم وواجباتهم أو غيرها من الأمور ذات علاقة بذلك . وكان لكل حرفة أو صناعة شعارات ومراسم يتمسك بها أفراد المهنة وهو تنظيم خاص بالصنف.^(٣)

وتناسب الإشارة هنا إلى أن توقيعات الصنّاع على التحف المعدنية المنتشرة في كثير من المتاحف ، أو المقتنيات الخاصة تكشف لنا كثيراً من الترتيبات المهنية والعلاقات الوظيفية التي تربط بين أهل الحرفة الواحدة، فطالما نقش الصانع أنه تتلمذ وتدرّب على الصانع فلان ، ويذكر الآخر أنه غلام للصانع فلان ، كما تكشف تلك

(١) أحمد عبدالرازق أحمد. الحضارة الإسلامية في العصور الإسلامية . القاهرة: دار الفكر العربي، (١٩٩٠م). ص ٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) عبد العزيز صالح سالم. "توقيعات صنّاع المعادن ومدلولاتها: من بداية القرن ٧هـ / ١٣م، إلى منتصف القرن ٨هـ / ١٤م". القاهرة: مجلة المورخ العربي، المجلد الأول، العدد التاسع (مارس ٢٠٠١م) الصفحات (١٥٣-٢٠٧).

(٣) الكروي، وعبدالتواب شرف الدين، مرجع سابق. ص ١٩٢.

التوقيعات عن علاقة الأجرة التي يتقاضاها صانع صغير أو متدرب لقاء عمله عند أحد الصناع المشهورين، فنراه يسجل اسمه إلى جانب اسم معلمه، وينعته باسم : أجير الصانع الكبير.^(١)

إضافة إلى أن تلك التوقيعات تكشف لنا تفوق بعض الصناع في صناعة معينة في بلادهم، وارتحالهم إلى مدنٍ أخرى ليستقروا بها، ومن ثم لتأثيرهم في صناعات تلك المدن بما جلبوه من بلادهم من خبرات، وبين الخبرات الجديدة والتقاليد الصناعية المحلية للمدن التي حلّوا بها - ظهر جيل من الصناع الذين أثبتوا قدرات فائقة في مختلف الصناعات.^(٢) هي بذلك تعدّ مصادر مهمة في تتبع تطور كثير من التنظيمات الحرفية، وعلاقتها المهنية في كثيرٍ من العصور الإسلامية .

ومما تناسب الإشارة إليه هنا أن نظام الطوائف الحرفية، واتباع تقاليدها كان من أبرز العوامل التي أدت إلى المحافظة على مستوى الحرف والصناعات، فقد كانت تلك الطوائف بمثابة مدارس فنية تعمل على تأهيل الراغبين في امتحان أي حرفة ليصبحوا صناعاً يقومون بدورهم المناسب في بناء مجتمعاتهم.

٢- التدرج المهني للطوائف :

وكان التدرج في الحرفة الواحدة سمة من سمات التنظيم العمالي في كثيرٍ من المجتمعات الإسلامية ، فكان لكل صانع أستاذ يتعلم منه صناعته، وكان السلم الحرفي لدى الصناع يبدأ بالتدرج من المبتدئ الذي يتعلم الصنعة ابتداءً، ثم يأتي بعده الخليفة الذي تكون مرتبة دون مرتبة الأستاذ، وفوق هؤلاء جميعاً يأتي رئيس الصنعة أو "شيخ الصنف".^(٣)

(١) عبد العزيز صالح سالم. المرجع السابق. ص ١٥٤-١٥٧.

(٢) المرجع نفسه. ص ١٦١، ١٦٢.

(٣) إبراهيم الكروي، وعبدالتواب شرف الدين، مرجع سابق. ص ١٨٨، ١٨٩.

فمثلاً لابد أن يقضي الغلام عدداً من السنين (صبيّاً) قد يكون دون أجر في بعض الأحيان، بل كان يظلّ طوال هذه المدة خادماً للمعلم قبل أن ينتقل إلى الرتبة التالية التي بموجبها يصبح شغّالاً بأجر زهيد ، وكان كثيرٌ من الصبيان يؤجرون أحياناً بطعامهم وشرابهم في مقابل تعلمهم الصنعة، وتوجد بعض العقود المسجلة على هذه الهيئة في بعض العصور الإسلامية.^(١) ولا يصل الصبي إلى رتبة (معلم) والتي بموجبها يحق له أن يفتح دكاناً ويبدأ باستقبال الأعمال إلا بعد أن يقضي في حرفته اثني عشرة، وخمس عشرة سنة.^(٢)

أمّا عن تقليد ترقية الصبي إلى مرتبة الصانع في الطائفة الحرفية، فإنه كان إذا تمّ تدريبه، فإنّ معلمه كان يُخبر شيخ الطائفة بذلك، فيكلف الشيخ النقيب بدعوة أرباب الحرفة للمشاركة في حفل ترقّيته، ويبدأ الاحتفال - الذي يحضره شيخ الطائفة والنقباء، وكبار رجال الحرفة- بتقدم الصبي وبجانبه معلمه إلى الشيخ فيحييه، ثمّ يقرأ الفاتحة، فيتلو الشيخ وجميع الحاضرين الفاتحة أيضاً، وبعدها يسأل الشيخ المعلم والصبي سؤالاً تقليدياً عن سبب مجيئهما، فيجيب المعلم بأنّ الصبي الذي جاء بصحبته قد أتمّ الصنعة بما فيه الكفاية، ويريد أن يفتح لنفسه دكاناً يمارس فيه المهنة التي تعلمها، فعندئذٍ يقوم الشيخ باختباره، فإن اطمأنّ إلى إجادته الصنعة، فإنه يقترب إلى الشاب ويشدّ حول وسطه بحزام أو بشال، وينتهي الاحتفال بتعريف المحتفل به بواجباته الجديدة، ويُؤخذ عليه العهد والميثاق بأن يتبعها ولا يخرج عنها ، وأن يخلص في عمله ، ثمّ يأخذ مكانه بين زملائه على بساط التكريم لتناول وليمة أعدت لذلك.^(٣)

وكانت مشيخة المهنة أو رئاسة الصنف مسؤولة عن مستوى المهنة، فكان شيخ المهنة يعمل ممثلاً لها في جميع شؤونها كما أنه يعدّ حكماً في الخلافات بين أعضاء

(١) أكرم العلي. المرجع السابق. ص ٢٣٧.

(٢) حسين مؤنس. مرجع سابق. ص ٢١٧.

(٣) السيد طه أبو سديرة. الحرف والصناعات في مصر الإسلامية . ص ٣٩٢، ٣٩٣.

الصنف، غير أن الخلافات التي تنشأ بين أهل صنعتين يكون مردده في الغالب إلى القضاة.

كما أن العميل يستطيع أن يتقدم إلى شيخ المهنة بالشكوى في حال محاولة العامل خداعه، أو عدم قيامه بعمله على الوجه المتفق عليه. وعرفت بذلك التصنيفات كيف تحافظ على مستوى الصنعة، وتقاليدها. أما المعلم، فهو في رتبة تلي رتبة شيخ الصنعة في بعض العصور الإسلامية، وربما صار هو رئيس الصنعة في عصور أخرى. فقد كان هذا يُشرف على العاملين في الصنعة، ويُحدد لهم أصولها وقواعدها وأخلاقياتها وفق تنظيم دقيق يحقق المصالح العامة.^(١)

وكان المعلمون أو الأساتذة هم الذين يحددون مستوى الصنعة وأجورها المناسبة في حال الخلاف، إضافة إلى أن العلاقات العمالية - بهذه الصورة - كان لها جانبها الاجتماعي، فالمعلم له مقام الوالد على صبيانهِ ومن يعملون تحت إمرته، وهو يشترك في تزويجهم، ويتوسط في خلافاتهم العائلية، وفي الغالب يكون زواج أهل الحرفة الواحدة فيما بينهم.^(٢)

وكان يلي هذا الشيخ والأساتذة المعلمين في أي صنعة، الصنّاع والصبيان في تدرج مهني دقيق، ويمكن لأي منهم الترقى إلى مرتبة أعلى في صنعته وفق التقليد الخاص بذلك، وغالباً ما تكون ضوابط ذلك مسجلة في التعليمات الخاصة بالمهنة.^(٣) وكانت أبرز الألقاب الحرفية المستخدمة في مختلف العصور الإسلامية ما يأتي:

الشيخ : وكان يُطلق هذا اللقب على رؤساء طوائف الحرف والصناعات، ذلك أنه جرت العادة أن يُعين على كلّ حرفة أو مهنة رئيس بهذا اللقب، وقد يُطلق عليه

(١) أكرم العلي. مرجع سابق. ص ٢٣٧.

(٢) حسين مؤنس. المرجع نفسه. ص ٢١٧، ٢١٨.

(٣) إبراهيم الكروي، وعبدالتواب شرف الدين، مرجع سابق. ص ١٩١، ١٩٢.

(عريف)، ويشترط فيه أن يكون أكثر أفراد الطائفة خبرة بالصناعة، وأكفأهم في سياسة أمور الحرفة، وكان هذا الشيخ، أو العريف يهيمن على أصحاب هذه الحرفة، وهو الذي كان يجيز للصانع مزاولة صناعته بعد اختباره، وكان يتخذ له معاونين، وكان يساعد المحتسب في رقابة الصنّاع ويرشده إلى أساليب غشهم، وهكذا وجد لكل حرفة أو صناعة شيخ، مثل: شيخ النجارين، وشيخ الدباغين، وغيرهم.^(١)

الأستاذ: وهي لفظة معرّبة عن كلمة أستاذ الفارسيّة، التي تعني السيد أو المشهور بعمله، وقد استعملت في العربية بمعنى الماهر، وهو المعنى نفسه تقريباً. وقد استعمل هذا اللقب في الدولة الإسلاميّة بدلالات وظيفيّة مختلفة كان أبرزها إطلاقه على من يتقن مهنته، ويبلغ بها درجة رفيعة، وبخاصّة المهرة من ذوي الحرف والصناعات على اختلافها، وقد حُرّف هذا اللقب في بعض العصور الإسلاميّة إلى كلمة (أسطى)، وهو لقب ربما شاع استخدامه على المهرة من البنائين، والدهانين الرسامين وغيرهم، وكانت أول إشارة للقب أسطى قد وردت في كتابة أثرية على شاهد رخام من مصر. بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة باسم سلامة الأسطه، مؤرخة في محرم سنة ٢٠٧هـ (مايو - يونيو ٨٢٣م).^(٢)

المعلم: وقد أطلق هذا اللقب على الصانع الماهر الذي يُعتقد أنه يتمتع بشيء من الإشراف على غيره من الصنّاع، أو كان له فضل تعليم غيره من أبناء حرفته، وقد ورد هذا اللقب بهذه الدلالة على كثير من التحف والآثار ملحقة بأسماء صنّاعها من بنائين، ونجارين، وصنّاع معادن.^(٣) وأكد ابن خلدون في مقدمته على ضرورة توافر المعلم لمختلف الصنّاع، وأنه على قدر جودة التعليم وملكية المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته.^(٤)

(١) حسن الباشا. الفنون الإسلاميّة، ج ٢. ص ٦٣١، ٦٣٠.

(٢) حسن الباشا. المرجع نفسه، ج ١. ص ٥٩-٦١، ٧٢.

(٣) المرجع نفسه، ج ٣. ص ١١١٠.

(٤) المقدمة. ص ٣٥٩.

التلميذ: وهي كلمة معربة عن السريانية، وتُطلق على المتعلم على يد أستاذ، وربما أطلقت على الموظف الذي لا يزال يتدرب، وهي هنا تطلق على الصانع الذي ينتسب لأستاذ في صناعته، كما ورد في بعض النقوش على التحف المعدنية، من ذلك كتابة بتاريخ سنة ٥٥٤هـ (١١٥٩م) على لوح صغير من النحاس باسم الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي جاء فيه: "صنعة أبي الفرج عيسى تلميذ القاسم بن هبة الله الإصطرابي".^(١)

الغلام: والغلام في أصل اللغة: "هو الصبي الصغير، ويجمع على غلمان وغلمة، ثم صار يُطلق على المملوك الصغير السن أو الذي لم يتجاوز مرحلة الشباب. ويرد ذكر هذا اللفظ كثيراً في توقعات بعض الصناع، وهو هنا يدل على أن الصانع المذكور تعلّم الصنعة على يد صانع آخر، ومن ثم يشعر كأنه مملوكه، وربما كان هذا الصانع مملوكاً فعلاً للصانع الكبير، ومن هذه التوقعات توقيع نصه: "عمل قاسم بن علي غلام إبراهيم بن مواليا الموصلية"، ورد ضمن كتابة ترجع إلى سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧م) سجلت على إبريق برنز من العراق باسم أمير دوا دار الملكي العزيزي.^(٢)

٣ - الإشراف على طوائف الحرف، ومتابعة أحوالها:

يشار هنا إلى أن الحرف والصناعات كانت تخضع لإشراف الدولة، وإلى رقابة صارمة من خلال المحتسب الذي كان يتولى تعيين عريف على كل طائفة من الصناع لمتابعة أحوال الحرفة، والوقوف على مواطن الغش والتدليس الذي يلجأ إليه أحياناً أصحاب الحرف. وقد أفرد الشيزري فصلاً في ذلك جاء في مبدئه: "ولما لم تدخل الإحاطة بأفعال السوق تحت وسع المحتسب جاز له أن يجعل لأهل كل صنعة عريفاً من صالح أهلها، خبيراً بصناعتهم، بصيراً بغشوشهم، وتدليساتهم، مشهوراً بالثقة والأمانة، يكون مشرفاً على أحوالهم، ويطالعه بأخبارهم، وما يُجلب إلى سوقهم من

(١) حسن الباشا. المرجع السابق، ج ١. ص ٣٣٨.

(٢) المرجع نفسه، ج ٢. ص ٧٩٦ - ٧٩٨.

السلع والبضائع، وما تستقر عليه من الأسعار، وغير ذلك من الأسباب التي يلزم المحتسب معرفتها. فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "استعينوا على كلّ صنعة بصالح أهلها".^(١)

وقد جاء في الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء مما يأخذه ولاه الحسبة بمراعاته من أهل الصنائع بالأسواق: "منهم من يراعي عمله في الوفاء والتقصير، ومنهم من يراعي حاله في الأمانات والخيانة، ومنهم من يراعي عمله في الجودة والرداءة".^(٢)

كما أن المحتسب كان مسؤولاً عن تنظيم العلاقة بين صاحب العمل وعمّاله وحل الخلافات التي قد تنشأ بينهما. ولا شك أنه كان لتلك الوظيفة أثرٌ بعيدٌ في ارتقاء الصناعات الإسلامية ونضجها، إذ كان يرسم للصانع طريقة العمل بإرشاد شيوخ الصنعة، كما أنه كان دائم التذكير له بأهم المبادئ التي يجب أن يراعيها في عمله، وبخاصة ما يتعلق بضرورة إتقان العمل والإخلاص فيه.

ومما يشار إليه هنا أن كتب الحسبة قد حفلت بالعديد من الشروط والواجبات التي كان على المحتسب وأعوانه من عرفاء السوق وأمناء الصناعات اتباعها في تأدية عملهم، وأنه لا يقف دورهم عند حد المراقبة، بل إنه كان من ضمن صلاحياتهم فضّ النزاعات التي قد تنشأ أحياناً بين الصانع والعميل، وتشير كتب الحسبة إلى مختلف المواصفات والمقاييس التي يجب أن يلتزم بها مختلف أصحاب الحرف، وأنفع المواد المستخدمة في صناعاتهم، وربما تشير أحياناً إلى أدق التفاصيل المتصلة بحرفهم.

(١) الشيزري، عبدالرحمن بن نصر بن عبدالله بن محمد الشيزري الشافعي (٥٨٩هـ/١١٩٣م). نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة، السيد الباز العربي. بيروت: دار الثقافة، ١٤٠١هـ (١٩٨١م). ص ١٢، هكذا ورد الحديث لدى الشيزري ولم أجد له ذكراً في كتب الحديث.

(٢) ابن الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف (٤٥٨هـ/١٠٦٦م). الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد الفقي. ط ٢. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي. ص ٣٠٢.

٤ - التجمعات الحرفية داخل المدن:

ومما له صلة بهذا التصنيف أنه كانت تقام لأرباب الحرف والصناعات تجمعات كبيرة داخل المدن الإسلامية ، وأسواق متخصصة يقصدها الناس على اختلاف طبقاتهم لشراء احتياجاتهم ومستلزماتهم، فكان يُخصّص لكلّ حرفة سوق أو مجموعة من الحوانيت ضمن إطار السوق الكبير. وقد لفت هذا التصنيف أنظار بعض الرّحالة الذين جالوا المدن الإسلامية . فقد سجل الرحالة الفارسي " ناصر خسرو " هذه الرؤية في زيارته لمصر سنة ٤٣٩هـ - (١٠٤٧م)، وذكر أنه شاهد في مدينة الفسطاط خاناً يُسمى " دار الوزير " لاياع فيه سوى القصب، وفي الدور الأسفل منه يجلس الخياطون، وفي الأعلى الرفاؤون، ويضيف أنه أحصى في هذه المدينة مئتي بناء تؤدي الغرض نفسه بالحجم نفسه أو أكبر منه.^(١)

كما تحدث أيضاً عن " سوق القناديل " الواقع على الجانب الشمالي من جامع عمرو بن العاص. وذكر أنه لأي : عرف سوق مثله في أي بلد، وأنّ فيه كل ما في العالم من طرائف، وأنه يحوي طوائف المعلمين المهرة في صناعة أنواع البلور الراقى، والتحف العاجية من أنياب الفيل، والإسكافية الذين يصنعون النعال الراقية من جلد البقر المستورد من الحبشة، كما وصف صناعة الفخار الفاخر، والأقداح والقوارير الملونة وغيرها من الصناعات النادرة.^(٢)

وكان هؤلاء المهنيون والصّناع يؤلفون فئة نشطة في المجتمع الإسلامي وينتمون إلى أجناس وطوائف متعددة، وهم ينقسمون بدورهم إلى تخصصات حرفية متنوعة تعجّ بها الأسواق في المدن الإسلامية ، حيث يشاهد فيهم صانعو القوارير الزجاجية،

(١) ناصر خسرو ، أبو معين الدولة ناصر خسرو القبادياني (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م). سفرنامه، ترجمة يحيى

الخشاب. بيروت: دار الكتاب الجديد. ط ٣. (١٩٨٣م) ص ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه. ص ١٠٣، ١٠٤.

والأواني الفخارية والخزفية، وصانعو المعادن من حدادين وصياقلة وصفارين بالإضافة إلى الطباخين - صانعي الصواني - وكذا من الصاغة، والحاکة والخياطين، والقطّانين، والصباغين، وصانعي الدروع، والإساکفة، والخراطين، والدباغين، وغيرهم ممن تقسّموا وفق هذا التخصص الدقيق الذي نجده أحياناً بين أصحاب الحرفة الواحدة، فقد عرف كثير من التخصصات التي كانت تضمها الحرفة الواحدة، فمثلاً في المشغولات المعدنية يمكن التعرف على عديد من التخصصات الفرعية الدقيقة التي تضمها هذه الحرفة من ضربّاب ونقّاش، وصفّار، ونحّاس، وموازيني، ومكفف، ومطعم، وحداد ثقيل، وحداد خفيف.^(١)

وكان من الأمور التي أصبحت مألوفة لدى أصحاب المهن والصنائع، انتشار الانتساب إلى المهنة، إلى جانب الانتساب إلى المدينة أو القبيلة، ومن أمثلة ذلك بين المشهورين: الزيات، والسّمّان، والخياط، والبرّاز، والخنّاط، والصوّاف، والصائغ، والبناء، والورّاق.^(٢)

ومن خلال التجمعات التجارية والأسواق المخصصة لكل حرفة في تخطيط كثير من المدن الإسلامية يتأكد لنا وجود التخصص الحرفي والمهني في واقع العمل، والصناعة في كثير من المجتمعات الإسلامية، وقد سجل الزهراني^(٣) أبرز الدوافع المؤدية إلى ذلك في النقاط الآتية:

١- أنّ طبيعة الدولة الإسلامية وتكوينها منذ عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تدعو إلى التنظيم، وإتقان العمل وإجادته، فالتنظيم مقوم أساسي وجذري في حياة المجتمعات الإسلامية .

(١) أحمد عبدالرازق، مرجع سابق. ص ٢٦٣.

(٢) عبدالله بن محمد السيف. الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي. الرياض: المؤلف، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م). ص ١٧١، ١٧٢.

(٣) ضوابط جودة المواد الغذائية. ص ٦٨، ٦٩.

٢- أن مصلحة الصنّاع قد دعت إلى تجمّعهم في مكان واحد، كلّ حسب تخصصه، كما أشار إلى ذلك الشيزري في حديثه عن بعض مهمّات المحتسب " ويجعل لأهل كلّ صنعة منهم سوقاً يختصّ بهم، وتعرف صناعتهم فيه، فإنّ ذلك لقصّادهم أرفق، ولصنّاعهم أرفق".^(١)

٣- أن الجماعات الحرفية والمهنية في كلّ زمان ومكان ترغب إلى الاجتماع في مكان واحد، لما بينهم من روابط حرفية، ومصالح مشتركة، وذلك من أجل تنظيم شؤون حرفهم، لذلك فرابطة المشاركة في الحرف بين الصنّاع أمر قد يدعو إلى التجمع والتخصّص في سوق واحدة.

٤- أن ضرورة الإشراف الحكومي على المهن والحرف دفعت الدولة الإسلاميّة إلى تشجيع تجمّعهم في سوق واحدة متخصصة لتسهيل عملية الرقابة عليهم.

٥- كما أنّه من أجل الحفاظ على الجودة، كان لابدّ من الفصل بين بعض الحرف النفيسة والحرف الوضيعة، وهذا يُعدّ من دوافع تقسيم الأسواق حسب تخصصها، وفي ذلك يقول الشيزري: "ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار، كالخباز والطباخ، والحدّاد، فالمستحب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزّارين، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار".^(٢)

٦- أن التنافس بين المتشاركين في الصناعات والمهن، قد أدّى بهم إلى التجمع في سوق واحدة ومتخصصة، ويكفي أن يكون من فوائد ذلك التناسب في الأسعار، وعدم المقدرة على رفعها على المستهلك لقرب منافسه منه.

(١) نهاية الرتبة. ص ١١.

(٢) نهاية الرتبة. ص ١١، ١٢.

ومن خلال هذه النقاط يتضح جلياً أهمية التخصص المهني بالتجمع في سوق واحدة، وأن ذلك ضرورة لا بدّ منها لما ورد من ميررات.^(١)

٥ - الوضع المعيشي لأصحاب الحرف:

من المعروف أنّ أجور الحرفيين كانت تختلف من مهنة إلى أخرى ومن مكان لآخر، كما أنّ بعض الأجور كان يدفع نقداً ، على حين أنّ البعض الآخر كان يدفعه أصحاب العمل عيناً، وبالجملّة فقد عاش معظم هؤلاء الحرفيين والصناع معيشة متوسطة داخل المدن الإسلاميّة ، إذ لم يكونوا بالأغنياء الموسرين، ولا بالفقراء المعدمين.^(٢) وكانوا ينقسمون حسب الأجرة إلى قسمين:

القسم الأول: الأجراء الذين يعملون لحساب غيرهم لقاء أجور يومية أو حسب القطعة ، وهؤلاء قد يعملون في دكاكين خاصة، أو يعملون في بيوتهم مستخدمين أدوات عمل يمتلكونها هم، أو موارد أولية يشترونها، أو يزودهم بها أصحاب العمل الذين يستأجروهم.

أما القسم الآخر: فهم الصناع المشتغلون لحسابهم الخاص، وهؤلاء يعملون في دكاكين خاصة بهم أو في بيوتهم ويساعدهم أولادهم الذين يرثون الحرفة منهم في غالب الأحوال. وهذه الطائفة تكون أحسن حالاً من ناحية الدخل لاستقلالها في العمل ولكونها تملك أدوات العمل ورأس المال الذين يعملون على تنميته على مرّ الأيام.^(٣)

كما أنه بإمكان الصناع الذين يعملون لحسابهم الخاص أن يزدوا من دخلهم وفقاً لحماسهم للعمل، ولمهارتهم، وجودة إنتاجهم، ومن المعروف أنّ صاحب الحرفة الماهر هو الذي يقدر أتعابه بنفسه حسب مهارته، أما الذي يتحكم فيه الناس أو

(١) الزهراني. المرجع السابق. ص ٦٩.

(٢) أحمد عبدالرازق. مرجع سابق. ص ٢٦٤.

(٣) المرجع السابق. ص ١٨٩.

أصحاب رؤوس الأموال من السماسرة والتجار فهو العامل غير المتقن لصنعتة، وكانت الوسيلة التي تشفع للصناع في ذلك وتحميهم هي رفع مستواهم الفني والحرفي.^(١) كما كانت تنظيمات الطوائف تقدم أحياناً خدمات إنسانية للمجتمع بعمامة ولأبناء الطائفة بخاصة، ويتم ذلك في الغالب عن طريق إنشاء صناديق تتكون مواردها من بدل الإيجارات، وأرباح الأموال الموقوفة، والوصايا ورسوم الانتساب، والتبرعات المقدمة من أهل الخير من رجال الحرف وغيرهم، فتتفق هذه الأموال في الخير العام للمجتمع، والخير الخاص لأبناء الطائفة، وبخاصة العجزة منهم والمرضى.^(٢)

٦ - المصنفات المتخصصة في مجال الحرف المهنية :

ومما له صلة بهذا الجانب، كثرة ما ألّف المسلمون من أهل في حرفهم، فما من صناعة إلا وألّف حولها مؤلفات عديدة، ولا يقتصر هذا على الحرف المشهورة كالبناء والحداة والسنجارة، بل لدينا كتب في عديد من الحرف الأخرى، كصناعة الجلود، وأدوات الكتابة، وصناعة الورق والزجاج والصباغة وسك النقود، وغيرها حتى أبسط الحرف.

وهذه الكتب - في العادة - تتناول الحرفة من كلّ نواحيها، وطرق كل ما يتصل بأصول الصناعة وأصنافها وموادها ومستويات الجودة فيها. وفي حالات كثيرة يتناول المؤلف الناحية الشرعية من موضوعه، كما نرى في بعض الكتب المؤلفة عن المبانى والعمارة، وكذلك الكتب الخاصة بسك النقود. وهذا يدل على أنّ العامل المسلم كان رجلاً متعلماً يمارس صنعتة على أصول مقررة مسطورة في مؤلفات خاصة بصنعتة. وهذا بلا شك سبب رئيس لتصنيفها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنّ أساليب معظم هذه المؤلفات يدل على أنّ مؤلفيها كانوا من أهل الصناعة الممارسين لها، يكتبون لأهل صناعة مثلهم، فهم يستخدمون المصطلحات الجارية بينهم، والعبارات التي لا

(١) السيد طه أبو سديرة. مرجع سابق. ص ٤٠١ - ٤٠٦.

(٢) محمد الطويل. مرجع سابق. ص ٩٠.

يفهمها إلا العمّال أنفسهم ، بل إنه وجد من الصنّاع الذين بلغوا منزلة رفيعة في صنعتهم، وخاصة الذين اضطلعوا بعمل النقوش في القاعات أو الأسقف الخشبية المزينة بالزخرفة والنقوش يحرصون على كتابة مفتاح زخرفة القاعة أو السقف في ظهر أحد الألواح الخشبية المستعملة، ويُنصّ في ذلك المفتاح على الألوان الأصلية حتى يمكن إعادتها إلى أصلها إذا تأثر ذلك اللون بأي سبب.^(١)

وقد خصّص النديم في كتابه الفهرست مقالته العاشرة والأخيرة لذكر نبذ من أخبار الكيميائيين وأهل الصناعات المختلفة مع الإشارة إلى أبرز مؤلفاتهم، وختم المقالة بقوله: "والكتب المؤلفة في هذا الشأن أكثر وأعظم من أن تُحصى".^(٢)

كما وضعت مؤلفات عديدة في مجال صناعة الزجاج وسكّ النقود والصناعات المعدنية الدقيقة، وفي صناعة التشييد والبناء، ولا شك أنه أمكن الاستفادة من هذه المؤلفات في مجال التدريب والتعليم، وهذا يدل على أن الصانع في كثير من العصور الإسلامية أصبح يمارس صنعته وفق أصول مقررة مسجلة في مدونات خاصّة.^(٣)

ويمكن هنا أن يشار إلى هذه المؤلفات على هيئة عناوانات فقط أمثلة لما أُلّف من كتب حول مجموعة من الصناعات منها:

- كتاب (الثقة في الصنعة)، وكتاب (الركن الأكبر). وهما في صناعة الكيمياء ألفهما العالم ذو النورين المصري (ت ٢٤٦هـ / ٨٦١م).
- كتاب (الأخطار والمراتب والصناعات)، وكتاب (غش الصناعات). و(التبصرة بالتجارة) ، وهي من مؤلفات الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م).
- كتاب (الأصول الكبير في الصنعة)، و(المذكرات في الصنعة). وهما لأبي بكر ابن وحشية (ت ٢٩٦هـ / ٩٠٨م).

(١) حسين مؤنس. المرجع السابق. ص ٢١٨.

(٢) السندم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق (ت ٤٣٨هـ / ١٠٤٦م). الفهرست. تحقيق، ناهد

عباس عثمان . الدوحة: دار قطري بن الفحاء، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م). ٦٩٦.

(٣) السيد أبو سديرة. مرجع سابق. ص ٣٩٠.

- كتاب (الإكسير)، و(شرف الصناعة)، وكتاب (الأسرار) وهي للطبيب أبي بكر محمد بن زكريا الرازي (ت ٣١٣هـ/ ٩٢٥م).

ومن هذه المؤلفات أيضاً: كتاب (آلات القدماء)، و(الكبريت الأحمر)، وهما للأخميمي، وكتابا (التمويه) و(الخمائير) لأبي قران، وكتاب (عمل الأصباغ) والمداد والحبر لديس تلميذ الكندي. وكتابا (التلاويح) و(سيول الزجاج)، و(صناعة الدرّ الثمين) لإسحق بن نصير.^(١)

هذا إضافة إلى ما ألف عن مجموعة من الصناعات والحرف والأعمال دقيقها وجليلها، وما ينبغي التزامه من مواصفات وآداب وشروط لهذه الأعمال. وهي مؤلفات بعضها مستقلّ في كتب ألفت لهذا الغرض، وبعضها معلومات واسعة ودقيقة وردت ضمن أبواب وفصول حوتها كتب الحسبة، وكتب الخطط، والموسوعات مما يصعب سرده هنا.

القواعد المنظمة للعمل في الإسلام:

وكما سبق إيضاحه، فقد كان العمل قبل الإسلام أمراً مهيناً محتقراً في كثير من الحرف، وكان يُنظر إلى العامل على أنه ضمن طبقة دنيئة مسخرة لخدمة الإنسان، ولم تكن للعامل أي حقوق يمكن أن يتميز بها، فيما كان مثقلاً بالواجبات التي تضعه في منزلة الاستعباد. فلما جاء الإسلام قام بتوجيه سلوك المسلمين إلى النافع لهم في مختلف مناحي حياتهم، من ذلك ما يتعلّق بموضوع العمل، حيث قام الإسلام بإرساء القواعد المنظمة للعمل، ونظّم العلاقة بين العامل وصاحب العمل، وضبطت تلك العلاقة بما يُسمى في الفقه الإسلامي: بالعقد، وجعلها علاقة تقوم على أساس قوي من الوضوح وضمان الحقوق كاملة، وفي المقابل أكّدت أهمية التزامه بمجموعة من الواجبات التي تضمن لصاحب العمل حقوقه أيضاً،

(١) الندم، الفهرست. ص ٦٨٦-٦٩٦.

كما ترك الإسلام الحرية التامة في اختيار ما يناسبه من أعمال في حدود ما تبيحه الشريعة الإسلامية ، وبما يعود للعامل، ومجمعه بالخير العميم. ويمكن هنا طرح موضوعات هذا المبحث في النقاط الآتية:

أولاً: عقد العمل:

حين حثّ الإسلام على العمل، وأباح للإنسان أن يستخر أخاه الإنسان في أداء عملٍ من أعماله تحقيقاً لمصلحة عامة أو خاصة لم يُترك الأمر دون تحديد للحقوق والواجبات التي تنظم العلاقة بين الطرفين، بل وضع لذلك ما يكفل تحقيق العدل ويحميها من التنازع والتخاصم، أو استغلال أحدهما الآخر. ولذلك شرع عقد العمل، الذي يعني الاتفاق والتعاقد بين العامل وصاحب العمل بأن يعمل العامل تحت إشراف صاحب العمل بأجر معلوم، وزمنٍ محدد، وجُعِلَ أساس هذا العقد هو التراضي بين المتعاقدين، وهذا شرط نفاذ العقد. فإذا ما تمّ التعاقد بين العامل وصاحب العمل، فإنه يجب على الطرفين الوفاء بالعقد وفق ما نصّ عليه من شروط والتزامات وواجبات عملاً بالأمر الإلهي الكريم الذي جعله من صفات المؤمنين، إذ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ ^(١)، وقرن تعالى الوفاء بالعهود بالأمانة وذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لَا أَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ ^(٢).

والحكمة من الأمر بالوفاء بالعقد ترجع إلى أن العقد هو الضابط الذي يحكم العلاقة بين الطرفين، ويجعلها تسير في طريق مأمون، وهو الذي يحدد الحق لكل منهما تحديداً واضحاً، فتبقى العلاقة بينهما في إطارها الأخلاقي الصحيح. وفي المقابل فإنّ عدم الوفاء بالعقد طريق إلى الظلم، وأداة للتراجع، وضياع الحقوق. ^(٣)

(١) سورة المائدة: آية (١).

(٢) سورة المؤمنون: آية (٨).

(٣) عزالدين الخطيب التميمي. العمل في الإسلام: أخلاقه ، مفاهيمه ، قيمه ، أحكامه . عمّان الأردن: دار عمّان، دار الفحاء، (د.ت). ص ٦٦، ٦٥ .

وقد أعطى الفقه الإسلامي العقد عناية تامة، وأطلق عليه "عقد الإجارة" فقد اصطُح على تسمية العامل : "أجيرًا" وفي المقابل فإن ما يأخذه لقاء ذلك يُسمى : "أجرًا"، وأدرج في الفقه الإسلامي ضمن باب "أحكام المعاملات". وقد سبق الفقه الإسلامي التنظيمات الوضعية الحديثة إلى وضع القواعد التي تنظم العلاقات بين العامل وصاحب العمل، فدرس الفقهاء علاقات العمال والصناع بغيرهم، وبينوا المبادئ العامة، والقواعد الأساسية دون التعرض للتفصيلات إلا في أحوال نادرة، إذ تركوا تلك التفصيلات لمقتضيات العصر، وبما يحقق المصلحة العامة، وهذا كله لابد أن يسير في إطار احترام إنسانية العامل، وضمان أجره.^(١)

وعناصر العقد أربعة هي: العامل، وصاحب العمل، العمل المتفق عليه، وأجر ذلك العمل.

فالعامل هو: كل من أدى عملاً شريفاً مقابل أجر معين. وسمي : أجيراً انطباقاً مع ما ورد في القرآن الكريم على لسان ابنة شعيب عن موسى - عليه السلام - إذ تقول: ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾^(٢). ويمكن أن يُشار هنا إلى أبرز الأمور التي يجب أن يشتمل عليها عقد العمل فيما يأتي:

- ١- بيان نوع العمل: وهو أمر جوهري في تمام العقد، فالإجارة على المجهول فاسدة.
- ٢- بيان المدة أو الزمن المشروط لإنفاذ العمل. وهو أمر مهم في تمام العقد، وعدمه يؤدي إلى التنازع في الغالب.
- ٣- بيان الأجر: وهو من أهم الأمور التي ينشدها العامل في إقدامه على العمل، وهو حق شرعي ثابت له فلا بد من اشتمال العقد على الأجر المتفق عليه.^(٣)

(١) محمد الطويل. العمال في رعاية الإسلام. ص ٧٥.

(٢) سورة القصص: آية (٢٦).

(٣) عز الدين الخطيب. العمل في الإسلام. ص ٦٢-٦٥.

ثانياً: حقوق العمال وواجباتهم:

رفع الإسلام من شأن العمل واحترم العامل وضمن له حياة كريمة، وأوضاعاً مستقرة آمنة، ونظّم العلاقة بين العامل وصاحب العمل، وجعلها تقوم على أساس من العلاقة الإنسانية الواضحة. فحفظ للعامل كرامته وإنسانيته وشخصيته، وعدّ العمل وسيلة طبيعية لحياة إنسانية شريفة لكثير من أفراد الأمة دون ذلّ أو هوان على صاحبه، كما أنه كان ركناً من أركان الحياة الاقتصادية في الدولة الإسلامية، لذا لزم تقدير شخصيته وكرامته وإرادته.^(١)

كما دعا الإسلام أصحاب الأعمال إلى الشفقة بالعامل وتقدير أجره وسرعة إعطائه الأجر، وعدم إرهاقه بعمل لا يطيقه، إلى غير ذلك من التوجيهات التي تدعو إلى المساواة بين العامل وصاحب العمل في الكرامة والإنسانية.

وكانت هذه الرؤية الإسلامية للعمل في الإسلام بما قرره من حقوق وواجبات للعامل، وصاحب العمل أمراً يميز التنظيم الإسلامي للعمل، ويُعدّ سمة أساسية من سماته. ويمكن طرح هذه الحقوق والواجبات في النقاط الآتية:

أ - حقوق العمال :

في مقابل أداء العامل ما قرّر عليه من واجبات، كفل له الإسلام حقوقه كاملة غير منقوصة، وألزم صاحب العمل توفير هذه الحقوق. وكفل له بها كرامته الإنسانية في أوسع صورها حتى جعله هو وصاحب العمل في منزلة واحدة يكمل كل منهما الآخر. ويمكن هنا تسجيل أبرز هذه الحقوق في النقاط الآتية :

١ — استيفاء الأجر: ومن أبرز الحقوق التي ينتظرها العامل من صاحب العمل هو إعطاء كل صاحب حق حقه بعد أدائه ما كُلف به، ومنهم العامل. واستيفاء

(١) علي حسني الخربوطلي. الحضارة العربية الإسلامية . القاهرة: مكتبة الخانجي (د.ت). ص ١٩٠.

صاحب الحق لحقه دون بخس أو مئة من ثواب العدل التي أكدها المولى تبارك وتعالى في كثير من آيات القرآن الكريم. ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(٢). وأكد القرآن أيضاً على ضمان أجر العامل على عمله بقوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذُكِّرْتُ أَوْ أَنْسِي بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾^(٣). وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾^(٤)، وهو توجيه إلهي كريم بعدم بخس الناس حقوقهم، حيث أباح الإسلام لأصحاب الأعمال استئجار العمال. وأباح للعمال العمل عند الآخرين بما هو مشروع ومباح من أعمال. ومقابل ذلك يحصل العامل على أجر نظير عمله، وهذا الأمر أشار إليه عز وجل في كتابه الكريم بقوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ. نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءَ، وَرَحْمَةَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٥).

ولئن كان حديث القرآن الكريم في تلك الآيات يتوجه - في غالبه - إلى العمل للآخرة، وقد لا تعني العمل الدنيوي بالمفهوم الذي يقصده البحث هنا، إلا أن إحسان العمل للآخرة يرتبط أحياناً بالعمل للدنيا، ثم إنه توجيه إلهي صريح بضرورة استيفاء الحقوق التي يتم التعاقد عليها بين المتعاملين من غير ظلم، ولا مماطلة، ولا خداع.

(١) سورة هود: آية (١٥).

(٢) سورة فصلت: آية (٨).

(٣) سورة آل عمران: آية (١٩٥).

(٤) سورة الأعراف: آية (٨٥).

(٥) سورة الزخرف: آية (٣٢).

وقد عرّف الفقهاء " الأجر " بأنه المال الذي يُدفع بدلاً لمنفعة مستوفاة. وأنّ الأجير أجيران: أجير خاصّ، وهو الذي يعمل لإنسان معين مع تحديد الأجر والمدة، كما عمل موسى عليه السلام لشعيب، وهذا يستحق الأجر بمجرد تسليم نفسه لصاحب العمل، حتى وإن لم يعمل مادام عقده سارياً.

وأجير مشترك، وهو الذي يعمل للناس كافة بأجر معيّن، وهذا لا يستحق الأجر إلا إذا عمل، وله أن يحتبس العين عنده، ولا يسلمها إلا إذا استوفى أجره إذا لم يُشترط في العقد تأجيل الأجرة.^(١)

وقد اهتمّ الإسلام بقضية أجور العمّال اهتماماً بالغاً لارتباطها بقضية العدل بشكل مباشر، رغم أنه لم يتدخل في تحديد مقدار ما يتقاضاه العامل لقاء ما يقوم به من عمل، وترك ذلك لنوع العمل، ومدى ما يستغرقه ذلك العمل من جهد ووقت، وكذا رضا الطرفين واتفاقهما. إلا أنه أكّد ضرورة أن يكون الأجر مكافئاً للعمل وعلى قدره دون ظلم أو بحس. فينبغي الاتفاق على الأجر نظير ما يقوم به العامل من عمل. وينبغي كذلك عدم تأخير ذلك الأجر.

فقد قال عز وجل بشأن المراضع: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.^(٢) وفي قصة شعيب وموسى قوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.^(٣) وأداء أجر العامل في النظم الإسلامية أمر يدخل في العقود التي أمر الله عز وجل بالوفاء بها والأمانات التي أمر أن تؤدي إلى أهلها بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.^(٤) وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾.^{(٥) (٦)}

(١) إبراهيم النعمة. مرجع سابق. ص ٣٣.

(٢) سورة الطلاق: آية (٦).

(٣) سورة القصص: آية (٢٥).

(٤) سورة المائدة: آية (١).

(٥) سورة النساء: آية (٥٨).

(٦) عباس الحسيني. مرجع سابق. ص ٣٠٢.

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي أن الله تعالى قال " ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته، رجل أعطي به ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفه أجره".^(١) وتبعاً لذلك فقد وجه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بضرورة ضمان أجر العامل فور انتهاء عمله لا يُظلم ولا يُستغل. فقال صلى الله عليه وسلم: " أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه"^(٢)، وتما الحديث عند البيهقي : " وأعلمه أجره وهو في عمله".^(٣)

كما روى البيهقي في حديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ومن استأجر أجيراً فليعلمه أجره".^(٤) ويشار هنا إلى أن تسمية الأجر تحفظ حق العامل فتطمئن نفسه، ويؤدي العمل المطلوب منه على وجه الكمال. كما تحفظ حق صاحب العمل فلا يغبنه العامل في طلب أكثر من حقه، مما قد ينشأ معه إشكال بين الطرفين. كما أن الإسلام يدعو إلى أن يكون أجر العامل كافياً يوفر له المعيشة الكريمة بأسبابها المتعددة، والحال هنا تختلف حسب نوع العمل وحجمه ، يستند الفقهاء في ذلك على توجيه النبي صلى الله عليه وسلم حول تولية عمّال الولايات حينما قال: " من ولي لنا عملاً وليس له مزل فليتخذ مزلاً، أو ليست له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً، أو ليست له دابة فليتخذ دابة. ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غال".^(٥)

(١) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة . ج ٢، ص ٣٥٨.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه. ج ٣، ص ١٦٢.

(٣) البيهقي. السنن الكبرى. ج ٦، ص ١٩٩.

(٤) المصدر نفسه. ج ٦، ص ١٢٠.

(٥) رواه أحمد في مسنده. ج ٤، ص ٢٢٩.

ومما يؤكد حرص الإسلام على صيانة حقوق الأجير وتسلمه للأجر مقابل ما قدمه من عمل، أن الأجر لا يسقط بفساد العقد، فالإجارة الفاسدة هي التي فاتها شرط من شروط الصحة، وحكمها الأصلي هو ثبوت الملك للمؤجر في أجر المثل. وبالنسبة للمشاركة في العقود يتضح أنه إذا فسد العقد اقتسم الشركاء الربح على قدر رؤوس أموالهم، ورجع كل واحد منهم على الآخر بأجر عمله، ويتضح من هذا أن من حق الأجير أن يأخذ أجر ما عمل إذا لم يتم العمل عند فسخ العقد لفساده، وهذا يعني أن عمل العامل لا يضيع أو يسقط فللعمل حرمة، ومن حق العامل أن يقتضي بمثل عمله.^(١)

وهذه التوجيهات تبين مدى اهتمام الإسلام بأجر العامل، وهي ضمان له بأن يستوفي أجره كاملاً دون ظلم أو بخس.

٢- مراعاة كرامة العامل، وعدم تكليفه ما لا يطيق، وكان من الحقوق التي ضمنها الإسلام للعمال اختيارهم ما يناسبهم من أعمال وفق قدراتهم ومواهبهم، ومراعاة كرامتهم في أعمالهم، وعدم تكليفهم بما فوق تحملهم من أعمال.^(٢)

ففي التوجيهات الكريمة التي تدعو للعمل راعى الإسلام كرامة العامل في عمله، فإذا مُسّت كرامته كان ذلك سبباً في نبذ العمل، فإذا تعاقد العامل مع صاحب العمل على أداء عمل معين، فتبين له - فيما بعد - أن هذا العمل يُعاب عليه، أو يخدش كرامته، كان من حق العامل أن يفسخ عقد العمل.

كما نهي الإسلام عن تكليف العامل فوق طاقته، فقد قال شعيب لموسى - عليه السلام - حين أراد أن يعمل له: ﴿وما أريد أن أشق عليك﴾.^(٣)

(١) السيد حنفي عوض. مرجع سابق ص ٥٩.

(٢) إبراهيم النعمة. مرجع سابق. ص ١٠٦.

(٣) سورة القصص: آية (٢٧).

ومن توجيهات الرسول ﷺ في عدم تكليف العامل بما لا يستطيع، وإعانة في حال المشقة، قوله: " إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوْلَكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلِفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ".^(١) وهذا يلزم أنه إذا حددت ساعات العمل وتم الاتفاق عليها، فإنه يجب التقيد بها، وهو ما يمكن أن يدرج ضمن ما يُسمى بلغة العصر (تحديد ساعات العمل) فإذا أراد صاحب العمل تكليف العامل بما يزيد عن ذلك الوقت المتفق عليه في عقد العمل، وجب إعطاؤه الأجر الإضافي على ذلك.^(٢) فيكون داخلا تحت قوله ﷺ في تنمة الحديث السابق: (إذا كلفتموهم فأعينوهم)، ولا شك في أن إعطاء الأجر على العمل الإضافي إعانة له بما ترضى به نفسه.^(٣)

ويناسب أن يشار هنا إلى أن الإسلام ينهى عن إرهاق النفس وتكليفها حتى في العبادة، فكيف بالعمل الدنيوي الذي لا ينتهي، ثم إنه ليس بالضرورة أن تؤدي زيادة ساعات العمل إلى زيادة الإنتاج لأن العامل المرهق جسدياً لن يُتقن عمله، وفوق ذلك فإنه كلما زاد وقت العمل ازداد العامل إرهاقاً.^(٤)

٣- تأمينه من إصابات العمل: وكان مما تميز به نظام العمل عند المسلمين أنه جعل من حق العامل تأمينه من إصابات العمل، وتعويضه عن الضرر، فإذا أقعدت الإصابة العامل عن الكسب، فإن الدولة قد عملت على توفير وسيلة للحياة، كما أنها كانت توفر العلاج وغير ذلك مما يمكن تسميته بالتأمينات الاجتماعية للعامل بعد توقفه

(١) البخاري. الصحيح، (كتاب العتق). ج ٢، ص ٨٩٩.

(٢) الخربوطلي، مرجع سابق، ص ١٩٠.

(٣) محمد الطويل، العمال في رعاية الإسلام. ص ٨٣، ٨٤.

(٤) عبد السمیع المصري. مقومات العمل في الإسلام. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٢هـ - (١٩٨٢م) . ص ٦٢-٦٣.

عن العمل لكبر أو مرض.^(١) أما إذا تعرض العامل إلى ضرر جزئي أو كلي، وجب على صاحب العمل تعويضه عن الضرر الذي لحقه.^(٢)

ويمكن أن يلحق بذلك الاهتمام بصحة العامل، بتوفير الرعاية الصحية له من علاج ودواء، وما يحافظ على صحته كالغذاء السليم، والمسكن الملائم، وغير ذلك من أوجه الرعاية التي يحتاجها العامل، وهي في نهاية الأمر ذات مردود أي : جابي على العمل.^(٣)

وما سبق يعدّ أبرز الحقوق التي قررها الدين الإسلامي للعاملين، وهي بلا شك موضع أمان واطمئنان لهم. وحافز لمزيد من العطاء والجد والإخلاص.

ب - واجبات العمال:

في مقابل الحقوق التي ضمنها الإسلام للعاملين، أكد أهمية التزام هؤلاء بمجموعة من الواجبات التي من أهمها:

١ - الإخلاص، والأمانة، ومراقبة الله عز وجل في عمله، فإذا كان صاحب العمل مسؤولاً فالعامل مؤتمن ومسؤول أمام الله عز وجل القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾^(٤)، وهو القائل تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ، وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٥)، وتشمل الأمانة كل ما يؤتمن عليه الإنسان، ومن ذلك الأمانة في العمل. فيجب أن يؤدي العامل عمله بكل أمانة وإخلاص دون غش أو خيانة سواء بالتساهل بالعمل، أو إفشاء أسراره، أو

(١) الخروبلي، مرجع سابق. ص ١٩١، وهو ما يُطلق عليه في بعض المجتمعات المعاصرة (الضمان الاجتماعي).

(٢) إبراهيم النعمة. مرجع سابق. ص ١٠٧. وإن كان الأمر يختلف هنا حسب حال العامل وسبب إصابته وليس الأمر على إطلاقه.

(٣) عباس الحسيني. مرجع سابق. ص ٣٠٣.

(٤) سورة النساء: آية (٥٨).

(٥) سورة الأنفال: آية (٢٧).

التفريط في أي من أدواته. ويدخل ضمن ذلك الحرص على وقت العمل باحترام مواعيده، وأدائه دون تأخير فيه.

٢- الإتقان والقيام بالعمل وفق ما هو متفق عليه دون خلل، وذلك بإحكام العمل وإجادته دون إهمال أو تقصير، وقد جاء ذلك ضمن توجيه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه".^(١) ومن إتقان العمل حسن رعايته والشعور بالمسؤولية تجاه ما يوكل إليه من عمل.

ومما يدخل ضمن مسؤولية العامل عن عمله ضمان بعض الضرر الناتج عن تقصيره، إلا أن الفقهاء يفرقون بين ضررين الأول: الضرر الناتج عن خيانة أو إهمال بقصد الضرر. والآخر: الضرر الناتج عن إهمال دون عمد، أو بقوة قاهرة.^(٢)

٣- حفظ أسرار المهنة ويدخل ذلك ضمن باب الأمانة في العمل، والحرص على مصلحة من ائتمنه على أسرار عمله فلزمه الحفاظ عليه، وعدم إفشاء سرّ من أسرارهم.

٤- أن يقنع بالأجر الذي تم تقديره أو تم الاتفاق عليه دون مساس بمال صاحب العمل، فقد شدد الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الجانب بقوله: "من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول".^(٣)

وتكرّر هذا التوجيه النبوي الكريم لعمال الصدقات بعد أن سئل أحدهم عن مال معه، فقال العامل: "هذا لكم وهذا أهدي إليّ"، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "أما بعد، فما بال العامل نستعمله، فيأتينا فيقول: هذا من

(١) رواه أبو يعلى من حديث عائشة - رضي الله عنها - أبو يعلى الموصلي، الحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي (ت ٣٠٧هـ / ٩١٩م) مسند أبي يعلى الموصلي تحقيق حسين سليم أسد. دمشق، بيروت: دار المأمون للتراث. ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م). ج ٧، ص ٣٤٩.

(٢) السيد حنفي عوض. مرجع سابق. ص ٦٠.

(٣) سنن أبي داود. ج ٣، ص ٢٣٨.

عملكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه و أمه فنظر هل يهدى له أم لا، فوالذي نفس محمد بيده لا يغلُّ أحدكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيراً جاء به له رغاء وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاة جاء بها تيعر، فقد بلغت".^(١)

ثالثاً: تحريم العمل غير المشروع:

وإذا كان الإسلام يحفز على العمل، ويدفع الناس إليه حتى يعيشوا حياتهم في كرامة وعزّة، ويترك الحرية في اختيار أي : عمل بدني أو ذهني يخدم المجتمع، ويدفع بالأمة إلى طريق الرقي والتقدم، فقد جعل العمل المشروع من أبرز المبادئ التي يقوم عليها العمل، فمن الواجب على المسلم أن يتحرى العمل المباح، وأن يبتعد عن الأعمال المحرمة، ويتجنبها، وهي تلك التي نهى عنها الإسلام وحذّر منها. يقول تعالى موجهاً لذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِ تَابِعُونَ﴾.^(٢) ويقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾.^(٣)

فالمسلم مطالب بأن يأكل من حلال، وإذا أنفق فعليه أن يُنفق من طيبات ما كسب، ولا يتحقق ذلك إلا بأن يكون العمل الذي اختاره وعمل فيه مشروعاً، قد أباحه الإسلام.^(٤)

ويعني ذلك أنه لا يجوز للمسلم أن يعمل في أي عمل يعده الشرع معصية، كما أنه لا يجوز له أن يعمل عملاً يؤدي إلى مفسدة، وهو ما يُطلق عليه في العرف الحديث: "الكسب غير المشروع"، أو: "العمل غير اللائق"، وهو ما يُطلق عليه في الاستعمال الدولي (Undecent Work).

(١) البخاري، الصحيح (كتاب الإيمان والنذور). ج ٦، ص ٢٤٤٧.

(٢) سورة البقرة: آية (١٧٢).

(٣) سورة البقرة: آية (٢٦٧).

(٤) سعيد بسبوني. مرجع سابق. ص ٣٧١.

وخلاصة آراء الفقهاء في مشروعية العمل والكسب الحلال أن عمل المسلم وكسبه يجب أن يكونا من وجه مشروع، فعلى المسلم أن يتحرى وجوه العمل والكسب قبل الإقدام عليها، فإن وجده عملاً حلالاً طيباً عمل فيه، وإن كان عملاً مشبوهاً أو غلب عليه الحرام فعليه اجتنابه.^(١)

كما أن الإسلام حرّم الأعمال التي تجلب الضرر على الإنسان نفسه، أو مجتمعه، كما نهى عن الأعمال التي يكون فيها دمار العامل أو هلاكه.^(٢)

والقاعدة هنا أنه "لا ضرر ولا ضرار" وقد قصد الشارع بذلك حفظ الضروريات الخمس للإنسان، وأوجب حمايتها، وهي: (الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل)، ولكي تتحقق حماية هذه الكليات الضرورية والمحافظة عليها، اعتبر الإسلام أن كل عمل يخلّ بها أو يؤثر عليها، أو يكون سبباً لذلك، من الأعمال المحرمة التي يجب على المسلم أن يتجنبها، ويتعد عنها. ومن جملة هذه الأعمال المحرمة: (العمل في إنتاج الأصنام، إنتاج الخمر، الميسر، القمار، تربية الخنازير، السرقة، السحر قطع الطريق، العمل بالربا، الرشوة، التفرير بالناس وخداعهم. وكذا الأعمال التي تؤدي أو تُعين على فعل الحرام، ومنها: جمع العنب أو بيعه لمن يجعله خمرًا، بيع السلاح لمن يحارب المسلمين أو يهدد أمنهم، العمل في ملاهي فساد الأخلاق، والأعراض، وهناك كثير من الأعمال التي حرّمها الإسلام، ويصعب حصرها في هذا المجال.^(٣)

ويشار هنا أن هناك حواراً في محافل العمل الدولية في الوقت الراهن حول ما يمكن تسميته بالعمل المشروع أو الشريف، وربما أطلق عليه "العمل اللائق"، وهو ما يُطلق عليه عند الغرب (Decsent Work).

(١) عز الدين الخطيب. العمل في الإسلام. ص ٢٧. وقد أشار إلى مجموعة من الأعمال التي حرّمها الإسلام.

(٢) إبراهيم النعمة. مرجع سابق. ص ٣١

(٣) سعيد بسيوني. مرجع سابق. ص ٣٧١-٣٧٣.

بين نظام العمل في الإسلام والتنظيمات الحديثة:

يمكن أن نقرر هنا - وبكل موضوعية - أن الإسلام جاء بأفكار ومبادئ قدمت وتقدم للعمال مكاسب اجتماعية لم يعرفها العالم من قبل، وأن التنظيمات العمالية المستحدثة إذا كانت قد حققت للعمال مكاسب مهمة، فهي بعض ما جاء به الإسلام. والشهادة تأتي من الغرب أنفسهم إذ يقول "لوبيه" في كتابه (عمال الشرق): "لقد صان المسلمون أنفسهم عن مثل خطايا الغرب فيما يمس رفاهية طبقات العمال، ويحافظ المسلمون بإخلاص على تلك النظم الباهرة التي يسود بها السلام بين الغني والفقير والسيد والأجير..."^(١).

وقد أعطى التشريع الإسلامي في مجال العمل للعمال حقوقه الكاملة، ووفر له البيئة المناسبة كي يُخلص في عمله، ويُبدع ويتكرر، وفق تنظيم دقيق يضمن الحقوق كاملة لطرفي العمل - العامل وصاحب العمل - على حد سواء، في الوقت الذي تباينت فيه التنظيمات الحديثة في النظر إلى العامل أو الأجير بين نظرية رأسمالية من أهم أسسها الملكية الخاصة التي تتيح المجال لاستخدام العمال والأجراء مما أدى إلى استبداد أصحاب الأعمال بالأجراء وفق مبدأ الالتزام، وقد لاقى خلالها الأجراء من أصحاب الأعمال العنت والإرهاق والاستغلال لعرقهم وجهودهم، وبين نظرية مضادة استوحيت من الفكرة الاشتراكية تنادي بمعالجة مشكلات الأجير، وتحديد وقت عمله، وتسعى لتحسين وضعه، فهدمت نظرية الالتزام، وأظهرت عدم صلاحيتها لمعالجة مشكلات العمال. مما اضطرّ فقهاء القانون في الغرب لأن يغيروا نظرهم للالتزام، فأدخلوا عليها مجموعة من التعديلات محاولة لترقيعها، وأدخلت على عقد العمل قواعد وأحكام تهدف إلى حماية الأجير، وإعطائه من الحقوق ما لم يكن له من قبل، كحرية الاجتماع، وحق تكوين النقابات، وحق الإضراب، وإعطائه تقاعداً

(١) إبراهيم النعمة. العمل والعمال في الفكر الإسلامي. ص ٨.

وإكراميات، وتعويضات نهاية الخدمة إلى غير ذلك من امتيازات. وبين تباينت النظرة إلى العامل بهذه الصورة أو تلك نشأ لديهم ما يُسمى بمشكلة العمل أو مشكلة الأجراء وصار لكل تنظيم عمالي حديث طريقته الخاصة في حل هذه المشكلة التي كان سببها اختلاف النظر للحياة.^(١)

ومع مرور الزمن، وتطور وسائل العيش، وظهور الاكتشافات العلمية الحديثة التي تقدمت كثير من الصناعات بسببها، برزت القضية العمالية بصورة معقدة، وتأججت تلك المشكلة في كثير من الدول بصورة أظهرت عجز التنظيمات العمالية عن معالجتها محلياً مما دعا تلك الأمم إلى التفكير في إعادة النظر في التنظيمات التي تحدد علاقات العمال بأصحاب الأعمال. مما أدى إلى الخروج من نطاق المحلية إلى ضرورة معالجتها في المحافل الدولية، وأدى هذا الهم إلى إنشاء هيئة دولية تعنى بشؤون العمال، وأصحاب الأعمال، وأخذت تجري على هذه التنظيمات مراجعات وتجديدات مستمرة وفقاً لتطور ظروف العمل وبيئاته مما حدا بمنظمة العمل الدولية في مؤتمراتها السنوية إلى إصدار توصيات تناسب ما يستجد من أمور، وتعالج ما يطرأ من مشكلات، كما تعقد اتفاقيات دولية متعددة لحفظ حقوق العمال ورعاية مصالحهم.^(٢)

ثم إن المجتمعات الغربية إذا كانت قد عانت وتعاني كثيراً مما يمكن تسميته في العرف الحديث بالمشكلة العمالية نتيجة للتنظيمات الاقتصادية المتناقضة، والقوانين العمالية المتباينة، فإن المجتمعات الإسلامية وعلى الرغم من تزايد أعداد العمالة فيها،

(١) سميح عاطف الزين. العقود والمطعمات والمشروبات: موسوعة الأحكام الشرعية الميسرة في الكتاب والسنة. القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤١٤هـ - (١٩٩٤م). ص ٤٩٨، ٤٩٧.

(٢) هي من أهم المنظمات التي عنت بقضية العمال، وقد تأسست في عام ١٩١٩م بموجب معاهدة فرساي، وألحقت بعصبة الأمم المتحدة، ثم أصبحت فيما بعد تابعة لمنظمة الأمم المتحدة، وكان مركزها في جنيف منذ تأسيسها حتى اليوم، باستثناء مدة الحرب العالمية الثانية التي انتقلت فيها المنظمة انتقلاً مؤقتاً إلى مونتريال بكندا. إبراهيم النعمة. مرجع سابق. ص ٧٧.

واختلاف مهنتهم، وبيئاتهم - على مرّ عصور الإسلام- لم تقف الدراسة على بروز هذه الظاهرة بصورة لافتة للنظر، ولعلّ ذلك يبرره أنّ الأحكام والتوجيهات الشرعيّة التي سادت المجتمعات الإسلاميّة، وتطورت تلك المجتمعات بوحى منها نظّمت الحقوق والواجبات بين العامل وصاحب العمل تنظيماً دقيقاً راقياً استوفيت فيه الحقوق المشروعة للطرفين، فلا يُكلف عاملٌ فوق طاقته، وعلى صاحب العمل أن يعطيه أجره دون إبطاء حتى إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بأن يُسلم الأجير أجره قبل أن يجف عرقه. ولذلك فإنّ العلاقة بين الطرفين يكتنفها الاحترام، وتسودها العلاقة السمحة، وأصبحت تلك العلاقة حافزاً للعامل في العطاء والإبداع، وأماناً له من أي استغلال أو ظلم.

هذا هو وضع العلاقة بين العامل وصاحب العمل في وقت أصبحت تلك العلاقة في كثير من المجتمعات المعاصرة علاقات ماديّة بحتة، لا تغذيها قيمٌ روحيّة، ولا تحوطها قيمٌ أخلاقيّة إنسانيّة، ولا توجهها عقيدة سديدة. كما أصبحت تلك العلاقة مصوغة في عبارات وقوالب جافّة جامدة لا تسري فيها معاني الحق والإنصاف، ولذلك كثرت إشكالات العمّال، واضطراباتهم.^(١)

وهذا الأمر يؤكد أهمية إبراز التنظيم الإسلامي، وإثارة روح هذا التنظيم القائم على أسس أخلاقيّة، تحكمها قواعد تشريعيّة تكفل الحقوق، وتضمن العلاقات الودية الحسنة بين أطراف الإنتاج في المجتمع.

وحينما تأتي الإشارة إلى التنظيمات النقابيّة الحديثة يقترن بالذهن ما تعيشه تلك المجتمعات من تناقض في المصالح مما يؤدي - في الغالب - إلى إشكاليات عماليّة، أبسط صورها: هيمنة أصحاب الأعمال على تلك النقابات، فتصبح النقابة أداة طيعة بأيديهم، فبدلاً من دفاع تلك النقابات عن العمّال، أصبحت ميداناً للدفاع عن أصحاب الأعمال، بل إنها تصبح في أحيان كثيرة حرباً على العمّال.

(١) عزّ الدين الخطيب. مرجع سابق. ص ٧٠.

وفي المقابل، فإنَّ التنظيم العمَّالي عند المسلمين، والذي يُطلق عليه التصنيفات المهنية، أو مشيخة الصناعات، كان لها أثر واضح في تنظيم الأمور المتعلقة بالحرفة ورعاية مصالح أفرادها، والمحافظة على أسرار الحرفة وتحديد الأجور، والمحافظة على مستوى جودة الصنعة التي يقوم بها هؤلاء، كما أنه يمكن عن طريق هذا التصنيف معالجة المشكلات المتعلقة بالمهنة سواء بين العمَّال وأصحاب العمل أو بين أصحاب المهنة وأصحاب مهنة أخرى ترتبط المصالح معهم.^(١)

وقد يأتي من يقول إنَّ الشؤون العمَّالية وتنظيماتها ترد عليها التغييرات والتجديدات بصورة مستمرة تبعاً لتطور النظم العامة، وتجدد الاختراعات والاكتشافات الحديثة، وكذا ما يطرأ على الأوضاع الاقتصادية من تغيرات متلاحقة. وهذا الأمر يجعل مقتضيات العمل وظروفه في تطور مستمر. وأنَّ ما جاء من تنظيمات تتعلق بشؤون العمل والعمَّال في النظم الإسلامية جاءت في غير هذه الظروف، ومن ثمَّ فإنَّها - وفق زعم الزاعمين - لا تساير التطور الحديث في هذا الشأن.

ويناسب أن يرد على هؤلاء بأنَّ الإسلام منهجٌ خاصٌ في إجراء التنظيمات الحياتية، فهو يصنع ما يناسب روحه، ووجهته الأصول الكلية والمبادئ العامة المرنة الواسعة، وأنه لا يفرض قوانين صمَّاء لا تلين، وإنما يدع للمجتمع تطبيق هذه الأصول والمبادئ بما يكفل مواجهة ظروف الحياة المتجددة، ومطالب الأزمنة والبيئات المتغيرة، وما يناسب ما تجري عليه أمور المجتمعات، وما تستقيم عليه أحوالها.^(٢)

كما يناسب هنا أن يشار إلى شبهة أخرى يثيرها أعداء الإسلام مؤداها أنَّ الأحكام التي شرعتها الشريعة الإسلامية للأجير والمستأجر، والتي تضع لكل واحد

(١) أحمد عبدالرازق أحمد، مرجع سابق. ص ٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) عباس الحسيني. مرجع سابق. ص ٣٠٧.

منهما حقوقاً وواجبات يجب الوفاء بها ، أن هذه التشريعات لا تعدو كونها إرشادات حُلُقِيَّة لا تتصل اتصالاً مباشراً بالموضوع من وجهتي النظر الاقتصادية والقانونية. ولكن هذه الشبهة جاءت نتيجة لعدم معرفة طبيعة الإسلام. إذ المعلوم أن الإسلام ليس نظاماً اقتصادياً فحسب، بل هو دستور متكامل، وشامل للحياة مترابط الأجزاء متماسك النواحي، بحيث لا تنفصل ناحية عن أخرى. ولا يمكن تمثل ملامحه بصورها الواضحة الجلية دون النظر إلى مختلف النواحي، ونسعى إلى تطبيقها على جوانب الحياة كلها.

وثمة ميزة أخرى للإسلام، هي أن تلك الأخلاقيات التي يؤكد عليها التشريع الإسلامي في كثير من أحكامه لم تكن بمعزل عن السلوك العام للإنسان المسلم سواء في عباداته أو معاملاته، وهو المؤمن بالله واليوم الآخر - بثوابه وعقابه- تلك العقيدة التي أحلت الأخلاق محل القانون، بل قامت بحماية القوانين الإصلاحية، وإذا تأملنا في أسلوب القرآن بدا لنا أن كل حكم من أحكامه التشريعية والحلُقِيَّة يقترن بمعنى التقوى، والاهتمام بالآخرة، والسر في هذا أن امتثال القانون واحترامه لا يتأتى بالقوة فقط ما لم يرد كل حركة من حركات البشر، وكل تفكير من أفكارهم إلى الآخرة.^(١) ومن هنا يمكن القول: بأن الرقابة على مثل هذه الأعمال في الإسلام هي رقابة ذاتية في المقام الأول، ويقرر القرآن الكريم هذا المبدأ بقوله تعالى: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾^(٢).

ويمكن أن نستدل على هذه الرقابة بشهادة اثنين من الفرنسيين حينما كتبوا مقالاً سنة (١٩٤٦م) قالوا فيه: " حاولنا كلّ النظم الاقتصادية: حاولنا النظم الرأسمالية، حاولنا النظم الإدارية، وفشلنا، ومن أهم ما فشلنا فيه عدالة التوزيع والرقابة، وأعلنا أن

(١) محمد شفيق. أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع. البحث التاسع ضمن بحوث مؤتمر الفقه الإسلامي الذي عُقد في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . الرياض: سنة (١٣٩٦هـ) نشر المجلس العلمي بالجامعة، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) (الصفحات: ٥٥٣-٥٨٠). ص ٥٧٤ ، ٥٧٥.

(٢) سورة القيامة: آية (١٤).

في الإسلام عجباً، لأنّ الرقابة فيه لا تأتي من شخص على شخص، ولا من هيئة على هيئة، وإنما الرقابة التي جاء بها الإسلام هي رقابة الإنسان لربه، ونضج الضمير الديني، وهذا وحده قوة كامنة في الإسلام".^(١)

وهذا الأمر يجعلنا نقرر أنّ تلك الأحكام الشرعيّة التي رسمت حقوق العمّال وأصحاب الأعمال لم تكن منفصلة عن بقية الأحكام الشرعيّة التي تهتم بشؤون الإنسان كافّة. ذلك أنّ تلك الأحكام إنّما عاجلت قضية العلاقات بين الطرفين - العمّال وأصحاب الأعمال - على اعتبار أنّها علاقات مرتبطة بغيرها من العلاقات الإنسانية الناشئة من حاجات الإنسان، ومتى ما وجد ذلك الانفصال بين أي جانب من جوانب الحياة المترابطة في أي عصر أو زمن، فإنّ الموازين تحتلّ والعلاقات تتأثّر، وتظهر المشكلات بدورها.^(٢)

إلا أنّ الإسلام بمرونة قواعده، وشمول نظريته كفيل بمواكبة كل تطورٍ، فالأصول الكلية والقواعد العامّة والمبادئ المرنة الشاملة لا تصون حقوق العمّال وحدهم، أو حقوق أصحاب الأعمال. وإنما تصون حقوق بني الإنسان جميعاً وتتيح للمجتمع مواجهة ظروف الحياة المتجددة. والأزمات والبيئات المتغيرة. فتختار ما يناسب أحوالها، ويحقق مصالحها، وصدق تعالى القائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣). إنّها الشريعة الخاتمة، التي أراد مترها - عزّ وجلّ - أن تكون صالحة لكل زمان ومكان. ولسائر الأجناس من البشر، ولكل البيئات التي يعيش فيها ذلك الإنسان بما تتصف به تلك الشريعة من يسر ومرونة.^(٤)

(١) بسيوي. مرجع سابق. ص ٦٤٣، ٦٤٤.

(٢) عز الدين الخطيب. العمل في الإسلام. ص ٥٩، ٦٠.

(٣) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

(٤) محمد الطويل. مرجع سابق. ص ١٠١-١٠٣.

الغاية:

كان الهدف الأساس من هذا البحث هو إبراز الرؤية الحضارية المتميزة للعمل في المجتمعات الإسلامية ، وما عني به العمل من اهتمام كبير في الحضارة الإسلامية ، على مرّ العصور نظرياً وتطبيقاً، وسبقها لكثير من التنظيمات الحاضرة في هذا المجال. ويندرج ضمن هذا الهدف ضمان حقوق العاملين وأصحاب العمل وواجباتهم المنوطة بكل منهم مما يمكن معه تلمس نظامٍ مثاليٍّ للعمل والعمال في المجتمع. كما يتبع ذلك محاولة إبراز الأثر الكبير الذي قام به أصحاب الحرف أو الصناعات في بناء المجتمعات الإسلامية والارتقاء بالنشاط الاقتصادي في تلك المجتمعات، وكذا دراسة أحوالهم المعيشية والاجتماعية وتنظيماتهم المهنية.

وتبع ذلك العمل على تأصيل مجموعة من المصطلحات ذات العلاقة بالعمل والمهن وربطها بما هو مستخدم في أنظمتنا الحاضرة ومحاولة ترجيح ما يتناسب إطلاقه من هذه المصطلحات وفق رؤية واقعية.

ومن خلال الشواهد التاريخية التي وردت في البحث اتضحت النظرة التي يُنظر بها إلى العمل في كثيرٍ من المجتمعات العربية قبل الإسلام. وهي نظرة امتهان واحتقار لمجموعة من المهن، وتطول النظرة من يمارس هذه الأعمال. وفي المقابل تتغير النظرة إلى العمل في الإسلام، وتأتي الدعوة إلى العمل دعوة صريحة وقوية من خلال مجموعة من آيات القرآن الكريم والأحاديث والتوجيهات النبوية الشريفة وأقوال مجموعة من علماء الأمة وفقهائها، وكذا أفعالهم مما يمكن معه تسجيل نظرة ديننا الحنيف إلى العمل المهني وموقفه من الاكتساب الحرفي المشروع.

فكان لهذه التشريعات الإلهية والتوجيهات النبوية الكريمة وما أثر عن سلف الأمة وفقهائها أبلغ الأثر في نفوس المسلمين، فأقبلوا على أنواع الصناعات يتقنونها ويحاولون التفوق فيها، مما انعكس أثره في كثيرٍ من المجتمعات الإسلامية التي شهدت ازدهاراً حضارياً في شتى مجالات الحياة.

كما تخلص الدراسة إلى أنّ التنظيمات العمالية المتعلقة بالتكتلات، والتصنيفات المهنية، (النقابات العمالية) لم تكن من خصائص التنظيمات العمالية الحديثة فقط، وإنما كان لها جذورٌ في المجتمعات الإسلامية الأولى، وإن كان هناك اختلاف بينهما في الأهداف والأغراض. حيث سجلت الدراسة انتظام أصحاب الحرف والصناعات في تنظيم تصنيفي دقيق له تقاليد خاصة متميزة في مجال العلاقات العمالية، وكذا في مجال التدريب والتدرج المهني لهؤلاء الحرفيين والصنّاع.

كما يمكن هنا تسجيل مجموعة من الأحكام التي تميز بها التنظيم العمالي في الإسلام ومنها:

- التوكيد على مشروعية العمل، والتحفيز إليه، بل إنه عدّه عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله، ودعا العامل إلى الإخلاص في عمله، ومراقبة الله تعالى فيما يوكل إليه. وفي المقابل حذّر من البطالة والكسل، والاستسلام للفقر.
- توسيع مجالات العمل وحدوده، وذلك بترك الحرية للعامل في اختيار ميدان العمل المناسب له، وهذا من باب حفظ الكرامة له. كما أنها مدعاة لتنمية المواهب، وكثرة الإنتاج، ومن ثمّ ينعكس ذلك في أدائه. مع التحفظ على بعض الأعمال غير المشروعة التي تجلب الضرر له ولمجتمعه. فالقاعدة في الإسلام : أنّ الأصل في كلّ عمل أنه مباح ما لم يأت دليل شرعي على تحريمه، والتحذير منه.
- كما عني الإسلام بالحقوق العمالية، وخصوصاً ضمان أجر العامل، ولو بالحد الأدنى من الأجور، وهو ما يغطي حاجته، وتحديد ساعات العمل، وكذا الحفاظ على كرامته بعدم تكليفه بما لا يطيق . إلى غير ذلك من الحقوق التي كانت مدعاة لأمان العامل واطمئنانه، وكان لها الأثر البالغ في نتاجه، وإبداعه.
- وفي مقابل الحقوق التي ضمنها الإسلام للعاملين، أكّد أهمية التزام هؤلاء بمجموعة من الواجبات التي تضمن لصاحب العمل قيامهم بالأعمال التي تمّ التعاقد عليها، ومنها: الإخلاص، والأمانة، ومراقبة الله عزّ وجلّ في عمله، والمحافظة على

أوقاته ومواعيده، وكذا الإتقان والقيام بالعمل وفق ما هو متفق عليه دون خلل، وأن يقنع العامل بالأجر الذي تمّ الاتفاق عليه دون مساس بمال صاحب العمل.

- كما يُشار هنا إلى أن كثيراً من المبادئ والتنظيمات العمالية التي وردت في التنظيمات الحديثة للعمل مما يتعلق بحقوق العامل، وتأهيله، ورعايته اجتماعياً وصحياً، ومكافأته على إبداعه، وغير ذلك من الامتيازات العمالية لا تخرج عن مضمون ما قرره التشريع الإسلامي للعامل، وإذا كان الإسلام لم يُفصل أحكامه في هذا الشأن إلى جزئيات، فإنه ترك ذلك لمقتضيات كلّ عصر وظروف كلّ مكان، بل إنّ التميز لدى الإسلام بضمان هذه الحقوق، واعتبارها حقوقاً ثابتة للعامل يقترن الوفاء بها بالعقود التي يقطعها صاحب العمل على نفسه تسجيلاً في العقد المبرم بين الطرفين أو عرفاً بينهما.

وأخيراً يمكن التأكيد على أمر مهم أنه في ظل تناقض التنظيمات العمالية التي تطبق في كثير من الدول، وما يجري على هذه التنظيمات من محاولات ترميم وإصلاح، وتطوير، بتباين المصالح ذات العلاقة، فإنه يناسب الرجوع إلى التنظيم الإسلامي لقضايا العمل والعمال، وهو مصدر سعادة واطمئنان للعامل وصاحب العمل على حد سواء، لاستقائه مواد من التشريع العادل المناسب لكل زمان ومكان، وفي مختلف ميادين الحياة. والتجربة خير برهان.

ختاماً ، أرجو أن أكون قد وفقت في تناول موضوع مهم يسלט الضوء على جانب مشرق من الجوانب المشرقة في حضارتنا الإسلامية ، وأن تكون هذه الدراسة نواة لطروحات أشمل وأنفع .

والله ولي التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

فهرس المصادر والمراجع :

أولاً : المصادر :

- ١- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م). صحيح البخاري. ضبط وتخرّيج مصطفى ديب البغا. دمشق: دار القلم، ودار الإمام البخاري، ١٤٠١هـ (١٩٨١م).
- ٢- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م). السنن الكبرى. تحقيق محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤١٤هـ (١٩٩٤م).
- ٣- التلمساني، أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالخزاعي التلمساني (ت ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م). تخرّيج الدلالات السمعية على ماكان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعيّة. تحقيق أحمد محمد أبو سلامة. القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٤٠١هـ (١٩٨١م).
- ٤- ابن تيمية، الإمام تقي الدين أبو العباس أحمد (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م). الحسبة في الإسلام، تحقيق سيّد ابن محمد بن أبي سعده. الكويت: مكتبة دار الأرقم، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).
- ٥- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م): إبليس، تحقيق السيد الجُميلي. بيروت: دار الكتاب العربي. ط ٧. ١٤١٤هـ (١٩٩٤م). مناقب عمر بن الخطاب ، تحقيق زينب إبراهيم القاروط . بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م).
- ٦- الجوهري، إسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م). الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق أحمد عبدالغفور عطار. ط ٤. بيروت: دار العلم للملايين، (١٩٩٠م).
- ٧- ابن حبان، الإمام أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م). روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، تحقيق جمال بن محمد بن محمود. الشارقة : دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٦ (١٩٩٥م).
- ٨- الحبيشي، أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن بن عمر الوصائي (ت ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م). البركة في فضل السعي والحركة. بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).
- ٩- ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت: مكتبة المثنى، (١٣٢٨هـ).

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. تصحيح وتحقيق الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز. مراجعة وإخراج محمد فؤاد عبد الباقي ، ومحب الدين الخطيب. دمشق: مكتبة دار الفحاء، (د.ت).
- ١٠- ابن حنبل ، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ) ، المسند . بيروت : المكتب الإسلامي (١٣٩٨هـ).
- ١١- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م). الجامع لأحوال الراوي وآداب السامع، تحقيق محمد رأفت سعيد. الكويت: مكتبة الفلاح (١٤٠١هـ).
- ١٢- الخلال البغدادي، أبو بكر أحمد بن محمد (ت ٣١١هـ / ٩٢٣م). الحث على التجارة والصناعة والعمل والإنكار على من يدعي التوكل في ترك العمل ولا حجة عليهم في ذلك . حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية ، ١٤١٥هـ (١٩٩٥م).
- ١٣- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م). المقدمة، تحقيق علي عبدالواحد وافي. القاهرة: دار الشعب.(د.ت).
- ١٤- أبو داود، الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م). سنن أبي داود. إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس و عابد السيد . بيروت : دار ابن حزم ، ١٤١٨هـ (١٩٩٧م).
- ١٥- الرازي ، محمد بن أبي بكر (ت بعد ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م). مختار الصحاح. بيروت: دارالكتاب العربي، (١٩٦٧م).
- ١٦- الزبيدي، محب الدين أبو الفيض محمد مرتضى بن محمد الحسيني الواسطي..(ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق إبراهيم الترزي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).
- ١٧- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله بن محمد الشيزري الشافعي (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م). نهاية الرتبة في طلب الحسبة. تحقيق ومراجعة، السيد الباز العريني. ط٢- بيروت: دار الثقافة. ١٤٠١هـ (١٩٨١م).
- ١٨- الصنعاني، محمد بن إسماعيل بن صلاح (ت ١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م). سبل السلام شرح بلوغ المرام لابن حجر. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٤ ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م).
- ١٩- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م). تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف (١٩٦٠م).
- ٢٠- الغزالي، الإمام أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١٢م). إحياء علوم الدين. إستانبول: دار الدعوة، ١٤٠٦هـ (١٩٨٥م).

- ٢١- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م). معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبدالسلام محمد هارون. بيروت: دار الجيل. (د.ت).
- ٢٢- ابن الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م). الأحكام السلطانية تحقيق محمد حامد الفقي. ط٢. القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي. ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م).
- ٢٣- الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٥م) القاموس المحيط. بيروت: دار الفكر. ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).
- ٢٤- ابن القيم، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بأبن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م). الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية. تحقيق محمد حامد الفقي. بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت).
- ٢٥- ابن ماجه، الحافظ أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م). سنن ابن ماجه بشرح الإمام أبي الحسن الخفني المعروف بالسندي (ت ١١٣٨هـ). تحقيق خليل مأمون شيحا. بيروت: دار المعرفة. ١٤١٦هـ (١٩٩٦م).
- ٢٦- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ / ١٣١١م). لسان العرب، القاهرة: دار المعارف، (د.ت).
- ٢٧- ناصر خسرو، أبو معين الدولة ناصر خسرو القبادياني (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م). سفر نامه ترجمه يحيى الخشاب. بيروت: دارالكتاب الجديد. ط٣. (١٩٨٣م).
- ٢٨- السنديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق (ت ٤٣٨هـ / ١٠٤٦م). الفهرست. تحقيق، ناهد عباس عثمان. الدوحة: دار قطري بن الفجاءة، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
- ٢٩- ابن هشام، عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م). السيرة النبوية. تحقيق مصطفى السقا وآخرين. القاهرة: دار الكنوز الأدبية. (د.ت).
- ٣٠- الهمذاني، أبو شجاع شيرويه بن شهردار الديلمي (ت ٥٠٩هـ / ١١١٥م). الفردوس بمأثور الخطاب. تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول. بيروت: دار الكتب العلمية، (١٩٨٦م).
- ٣١- أبو يعلى الموصلي، الحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي (ت ٣٠٧هـ / ٩١٩م). مسند أبي يعلى الموصلي. تحقيق حسين سليم أسد. دمشق، بيروت: دار المأمون للتراث، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).

ثانيًا: المراجع:

- ٣٢- إبراهيم سلمان الكروي ، وعبدالنواب شرف الدين. المرجع في الحضارة العربية الإسلامية . الكويت: ذات السلاسل، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).
- ٣٣- إبراهيم النعمة. العمل والعمال في الفكر الإسلامي . جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).
- ٣٤- أحمد عبدالرازق أحمد. الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، دار الفكر الفكر العربي، (١٩٩٠م).
- ٣٥- أكرم حسن العلي. دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين (٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥٢٢م): دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية. دمشق : الشركة المتحدة للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).
- ٣٦- أنور الرفاعي. الإسلام في حضارته ونظمه. ط٣. دمشق: دار الفكر، ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م).
- ٣٧- حسن الباشا. الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة : دار النهضة العربية، (١٩٦٦م).
- ٣٨- حسين مؤنس. عالم الإسلام. القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤١٠هـ (١٩٩٨م).
- ٣٩- زيدان عبد الباقي. العمل والعمال والمهن في الإسلام. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م).
- ٤٠- سميح عاطف الزين. العقود والمطعمات والمشروبات: موسوعة الأحكام الشرعية الميسرة في الكتاب والسنة. القاهرة: دار الكتاب المصري؛ بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤١٤هـ (١٩٩٤م).
- ٤١- السيد حنفي عوض. العمل وقضايا الصناعة في الإسلام. - الإسكندرية: المكتب العلمي للكمبيوتر والنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ (١٩٩٦م).
- ٤٢- السيد طه السيد أبوسديرة. الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي: ٢٠-٥٦٧هـ/٦٤١-١١٧١م. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩١م).
- ٤٣- سيد أبو الفتوح محمد بسيوني. الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية. المنصورة، ج.م.ع: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م).
- ٤٤- صادق مهدي السعيد. مفهوم العمل وأخلاقه في الإسلام، القاهرة: مكتب العمل العربي، (١٩٨٣م).
- ٤٥- صبحي الصالح. النظم الإسلامية نشأتها وتطورها. طه . بيروت: دار العلم للملايين، (١٩٨٠م).
- ٤٦- ضيف الله بن يحيى الزهراني. ضوابط جودة المواد الغذائية في مصر خلال العصر الأيوبي: ٥٦٤-٦٤٨هـ/١١٦٩ - ١٢٥٠م، سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية (٧). مكة المكرمة: جامعة أم القرى ، (١٤١٠هـ).

- ٤٧- عباس حسن الحسيني. دستور المهن في الإسلام. القاهرة: مؤسسة الأسعد للطباعة، (١٩٩٨م).
- ٤٨- عبد السميع المصري. مقومات العمل في الإسلام. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م).
- ٤٩- عبد العزيز صالح سالم. توقيعات صنّاع المعادن ومدلولاتها: من بداية القرن ٧هـ / ١٣م، إلى منتصف القرن ٨هـ / ١٤م. القاهرة: مجلة المؤرخ العربي، المجلد الأول، العدد التاسع (مارس ٢٠٠١م). ١٥٣-٢٠٧.
- ٥٠- عبدالعزيز بن إبراهيم العُمري. الحرف والصناعات في الحجاز في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. ط ٣. الرياض: دار إشبيلية، ١٤٢٠هـ (٢٠٠٠م).
- ٥١- عبد الله بن محمد السيف. الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي. الرياض، ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).
- ٥٢- عز الدين الخطيب التميمي. العمل في الإسلام: أخلاقه، مفاهيمه، قيمه، أحكامه. عمّان الأردن: دار عمّان، دار الفيحاء، (د.ت).
- ٥٣- علي حسني الخربوطلي. الحضارة العربية الإسلامية. القاهرة: مكتبة الخانجي (د.ت).
- ٥٤- علي بن محمد الأنصاري. المرأة: تعليمها وعملها في الشريعة. الرياض: إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ضمن سلسلة بحوث طلابية (١) رجب ١٤٠٦هـ (مارس ١٩٨٦م).
- ٥٥- محمد شفيق. "أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع". البحث التاسع ضمن بحوث مؤتمر الفقه الإسلامي الذي عُقد في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الرياض: سنة (١٣٩٦هـ)، نشر المجلس العلمي بالجامعة، ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م). ص ٥٥٣-٥٨٠.
- ٥٦- محمد شوقي الفنجرى. الإسلام والمشكلة الاقتصادية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. (د.ت).
- ٥٧- محمد عبد السلام أبو النيل. حقوق المرأة في الإسلام: ولهنّ مثل الذي عليهنّ. ط ٢. القاهرة: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. ١٤١٨هـ (١٩٩٨م).
- ٥٨- محمد محمد الطويل. العمال في رعاية الإسلام. - الجيزة، ج.م.ع: مكتبة ومطبعة الغد، ١٤١٩هـ (١٩٩٨م).
- ٥٩- واضح الصمد. الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ (١٩٨١م).
- ٦٠- مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط. تأليف بعض أعضاء المجمع. بإشراف عبد السلام هارون. القاهرة: مطبعة مصر، ١٣٨١هـ (١٩٦١م).